مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

« ١٢ »

بَصَائِرُ الحَقِّ

فِي سُورَةِ الأَنعَامِ

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بصائر الحق

في سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لِلَّه ربِّ العالمين، وأفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التسليم على سيدِنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه والتابعينَ لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيتميز العصر الحاضر بكثرة الاتصالات بين الناس وسهولتها، وقد قربت وسائل الاتصال والنقل الحديثة الناس من بعضهم، وأصبح العالم بسببها صغيراً، واختلط الناس ببعضهم رغم اختلاف أفكارهم وثقافاتهم وتعددِ مللهم ونحلهم، وتولَّد من ذلك احتكاكٌ بين الأفكار المتباينة والعقائد المختلفة، أدى إلى قيام حوار وخصام ومناظرات ومجادلات.

ولا بد في النهاية أن تصل هذه المناظرات والمواجهات إلى ظهور الحق وثباته بسبب قوة براهينه ودلائله، وإلى اضمحلال الباطل وهزيمته بسبب ضعفه وتهافته وتناقضه ﴿ فأمَّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأمَّا ما ينفع الناس فيمكثُ في الأرض ﴾[1] ﴿ بل نَقْذِفُ بالحقِ على الباطل فيدْمَغُه فإذا هو زاهق ﴾[2].

والعقيدة الإسلامية أقوى العقائد وأثبتها، ولا زالت في الساحة شامخة ثابتة تتحدى المخالفين وتجادلهم وتناظرهم وتبدِّد أوهامهم وتحقق الفلج عليهم، فهي أقرب العقائد إلى قلب الإنسان وعقله وفطرته، وتقوم على أساسٍ صخري متين، تسنده أقوى الأدلة وأوضح البراهين.

---

(١) الرعد: الآية ١٧.

(٢) الأنبياء: الآية ١٨.

ولا يحتاج الإنسان المسلم لإثبات قوة عقيدته إلا أن يتزود بزاد القرآن الكريم، ويتسلح بأدلته القاطعة وبراهينه الواضحة وحججه البالغة.

وقد خصَّص الله تعالى سورة الأنعام لتكون زاداً للمؤمن، الذي يبني إيمانه على بصيرة ويدعو إلى الله تعالى على بصيرة، فهي بحق سورة بصائر الحق.

وقد رأيت أن أبرز موضوعها هذا في هذه السِلْسِلَة القرآنية المباركة، التي تتحدّث عن الموضوعات الأساسية الكبرى لبعض سور القرآن الكريم؛ لأنَّ كل مسلم في هذا العصر في أشدِّ الحاجة إلى معاني هذه السورة وموضوعها وأسلوبها في التعامل مع المخالفين له والمعارضين لدعوته.

وقد جاء الكتاب في أربعة فصول:

الفصل الأول: (الحمد للّه) ركزت الآيات فيه على إبراز اتصافِ الله تعالى بصفات الكمال والغنى والوحدانية ولهذا فهو وحده المستحق للحمد بذاته، وأبرزت الآيات في الوقت نفسه ضعف الإنسان وفقره وشدة حاجته للّه تعالى.

وأما الفصل الثاني: (إرشاد وتوجيه) فقد غلب على آياته أسلوب التوجيه والإرشاد، إذ اتجه الخطاب في أكثر آياته للمؤمنين.

وأما الفصل الثالث: (مناظرة وردود) ففيه عرضت الآيات مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه، وفيه أيضاً ردود على كثير من أصحاب الملل الفاسدة والنِّحَل الباطلة، قديمها وحديثها.

وأما الفصل الرابع: (سَفَهٌ وضلال) فقد ذكر الله تعالى فيه كثيراً من المفاسد والضلالات التي كانت فاشيةً في المجتمع العربي الجاهلي، وبعد أن بيَّن سبحانه فسادها وتناقضها ختم آيات السورة الكريمة بدعوة الناس إلى الوصايا العشر الخالدة.

ولا بد أن يستشعر القارىء الاتّساق والاتفاق بين آيات السورة، وهو الهدف الأساسي لهذه السِلْسِلة القرآنية المباركة.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا ويسدِّدَ خطانا، وأن يبصِّرَنا ببصائر الحق، ويثبِّتَنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

مكة المكرمة
٢٨/ ١/ ١٤٠٩ هـ
الموافق ٩/ ٩/ ١٩٨٨ م

الفقير إلى الله تعالى

عبدالحميد محمود طهماز

المعهد العالي لإعداد
الأئمة والدعاة

مَوضوع سُورَة الأنعَام

البصائرُ لعقل الإنسان وقلبه كالأبصار لعينه، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات ويظهرها، والإسلام دين العقل والقلب والفطرة، وأكثر ما يخاطب عقل الإنسان وفكره، يدعوه إلى الإيمان والإسلام عن طريق عقله وتفكيره؛ ولهذا نرى القرآن الكريم يثني كثيراً على الإنسان الذي يستعمل عقله وتفكيره ليتعرف على الحقيقة ويميزها عن ركام الباطل والضلال، فلِأصحاب العقول أولي الألباب والنُّهىٰ والبصائر مكانةٌ كبيرة، ومنزلةٌ رفيعة في القرآن الكريم.

وخصصت سورة الأنعام التي نزلت في مكة لمحاورة جميع المعرضين عن الإسلام والمعاندين لدعوته من أصحاب المِلل والنِّحل المختلفة، فلم تترك أصحابَ ملَّة ضالّة وعقيدةٍ فاسدة قديمةٍ أو حديثةٍ إلا حاورتهم في آياتها وجادلتهم، وبيَّنت فسادَ ملّتهم وضلالَ نِحْلتهم، كما سيظهر لنا من خلال تأمُّلنا وتدبُّرنا لآياتها.

فهي بحق سورة الحِجَاج والبراهين، تميَّزت عن أخواتها من طِوال السور بخلوِّها عن القَصَص القرآني، سوىٰ بضع آيات فيها تحدَّثت عن مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه، وهذه المناظرة من صميم الموضوع الأساسي للسورة الكريمة.

وقد برز موضوع السورة في أول آياتها: ﴿ الحمد للّه الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وجعلَ الظلماتِ والنورَ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون ﴾.

هكذا بدأت السورة بهذا الهجوم الكاسح على المخالفين والمعاندين، كأنها تدعوهم إلى ساحة الجدال والمناظرة لتكشف زيفَهم وتظهرَ ضعفَهم.

ثم بعد ذلك شرعت في إيراد الأدلة وحشد البراهين حتى وصلت إلى قوله تعالى في تقرير الحق: ﴿ قد جاءكم بصائرُ من ربِّكم فمن أبصرَ فلنفسِه ومن عميَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وإلى قوله أيضاً: ﴿ قُل فللهِ الحجَّةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾.

ولا عجب إذاً أن تنزل سورة الأنعام بآياتها التي بلغت مائة وأربعاً وستين آية على النبي ﷺ دفعةً واحدةً، ومعها موكبُ كبيرٌ من الملائكة لهم زَجَل[١] بالتسبيح والتقديس والتحميد، كما دلَّ على ذلك عدد من الآثار.

قال القرطبي رحمه الله: هذه السورة أصلٌ في محاجَّةِ المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذَّب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملةً واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرَّف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين[٢].

---

(١) أي صوت رفيع عال كما في النهاية لابن الأثير ٢/٢٩٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٧/٩٧.

الفَصل الأوَّل

الحَمدُ لله

الحمد لله

بدأ الله تعالى سورة الأنعام بالثناء على ذاته المقدسة، فقال عز وجل: ﴿ الحمدُ لِلَّه الذي خَلَقَ السَّمَـوَاتِ والأرضَ وجَعَلَ الظُّلماتِ والنُّورَ ثمَّ الذينَ كَفَرُوا بربِّهم يَعْدِلُونَ ﴾ [١].

ويدلُّ قوله سبحانه: ﴿ الحمد للَّه ﴾ على وجوب اتصافه تعالى بكافة صفات الكمال والجلال والجمال، فهو المستحق للحمد بذاته؛ لأنه سبحانه وحده المتصف بجميع صفات الكمال، وهو ثابت له سبحانه بطريق البرهان والاستدلال، كما سيظهر معنا في آيات سورة الأنعام.

وبعضهم فسَّر الحمد بالإحاطة بأوصاف الكمال(١)، ولما كانت كمالاته سبحانه غير متناهية ولا يحيط بها أحد من المخلوقات، حَمَدَ اللهُ تعالى نفسَه بنفسه فقال: ﴿ الحمد للَّه ﴾.

وقد ورد في بعض أدعية النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

ولما سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن معنى (الحمد للَّه) قال: الحمد للَّه، كلمةٌ رضيها لنفسه(٣).

---

(١) نظم الدرر ٢/٧.

(٢) رواه مسلم.

(٣) فتح القدير للشوكاني ١/٢٠.

فما عَرَف اللهَ حق المعرفة أحد، وما أحاط بكمالاته غيره تعالى، تقدَّست ذاته وتباركت أسماؤه وتسامت صفاته، وسيأتي معنا قوله عز وجل: ﴿لا تُدْرِكُه الأبصارُ وهو يدركُ الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير﴾.

واستحقاقه سبحانه للحمد ثابتٌ دائمٌ قبل إيجاده للخلق وبعده، وسواء حمده العباد أو كفروه؛ لأنَّ صفاتِ كماله وجماله وجلاله أزليةٌ أبدية غير حادثة، ولا يطرأ عليها تغيير أو تبديل، فهو سبحانه خالق قبل أن يَخلق، لأنه قادر على الخلق أزلاً، ورازق قبل أن يَرزق، لأنه قادر عليه أزلاً.

والألف واللام في ﴿الحمد﴾ لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «اللهم لك الحمد كلُّه، ولك الملك كلُّه، ولك الخلق كلُّه، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كلِّه، وأعوذُ بك من الشر كلِّه»[1].

وأمر الله عبادَه أن يثنوا عليه به في ضمن هذا الثناء الذي أثنى به على نفسه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليرضىٰ عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[2].

قال ابن كثير رحمه الله: (الحمد للّه) ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أَمَرَ عبادَه أن يثنوا عليه، فكأنّه قال: قولوا: الحمدُ للّه... وهو ثناءٌ على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكرُ لا يكون إلا على المتعدية، وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر، والشكر الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف[3].

ثم بيَّن سبحانه موجب استحقاقه للحمد بقوله تعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ فإيجاده تعالى للموجودات كافٍ في استحقاقه تعالى للحمد، فكيف بما يتفرع عليها من فنون النِّعَم المنوط بها مصالح العباد في المعاش والمعاد[4]، فهو كقوله تعالى: ﴿الحمد للّه فاطرِ السموات والأرض جاعلِ

(١) رواه البيهقي.
(٢) رواه مسلم.
(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٠.
(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٢/١٠٤.

الملائكةِ رسلاً أولي أجنحةٍ مثنى وثلاثَ ورباعَ يزيد في الخلق ما يشاء إنَّ الله على كل شيء قدير ﴾[١].

فهو سبحانه يستحق الحمد لأنه خلق السموات والأرض، ويستحقه أيضاً لأنه مالك للسموات والأرض ومدبر لما فيهما من الأمر، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ الحمد للّه الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾[٢].

ويستحقُّ سبحانه الحمد أيضاً على إرساله الرسل لهداية عباده، وإنزاله الكتب كما قال سبحانه: ﴿ الحمد للّه الذي أنْزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾[٣].

والحمد لا يكون إلا للفاعل المختار، فخلقه سبحانه للسموات والأرض كان بمحض مشيئته وإرادته،فكأنَّ قوله ﴿الحمد للّه﴾ تصريحٌ بأنَّ المؤثِّر في وجود العالم فاعل مختار، خلقه بالقدرة والمشيئة[٤].

ومعنىٰ الخلق: الإيجاد والإنشاء والصنع والاختراع، فالله سبحانه خلق السموات والأرض، أي: أوجدهما وأنشأهما.

ويأتي الخلق أيضاً بمعنى التقدير والقياس يقال: خلق الثوبَ، أي قدره وقاسه على ما يريد قبل العمل، ولا شك أنه سبحانه أنشأ السموات والأرض وقدَّرهما، وقدَّرَ كل ما فيهما، فله سبحانه الخلقُ والتقدير لكل المخلوقات.

قال تعالى: ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[٥]، وقال أيضاً: ﴿ سَبِّح اسم ربِّك الأعلى. الذي خَلَق فسوَّى. والذي قدَّر فهدىٰ ﴾[٦].

---

(١) فاطر: الآية ١.

(٢) سبأ: الآية ١.

(٣) الكهف: الآية ١.

(٤) انظر التفسير الكبير ١٢/١٤٣.

(٥) القمر: الآية ٤٩.

(٦) الأعلى: الآيات ١ ـ ٣.

الظلمات والنور

﴿ وَجَعَلَ الظُّلماتِ والنُّورَ ﴾ وهذا أيضاً من موجبات استحقاقه تعالى للحمد، فكما أن خلق السمـوات والأرض من نِعَم الله تعالى الجليلة، كذلك جَعْلُ الظلمات والنور من نعمه العظيمة.

والجَعْلُ: هو الإنشاء والإبداع كالخلق، إلا أنَّ الجعلَ أعمُّ من الخلق، فهو يشمل الإنشاءَ والإبداعَ والاختراع، كقوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه ﴾، ويشمل أيضاً الوضعَ والتشريع[١]، كقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنَّ أمهاتِكم وما جعل أدعياءَكم أبناءَكم ذلكم قولُكم بأفواهِكم واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيل ﴾[٢].

ولهذا رأى بعضهم أنَّ جعل الظلمات والنور هنا حكمٌ جرى به قضاؤه، أو أنه سبحانه جعل الظلمات آثار المعاصي، والنور آثار الإيمان به سبحانه وطاعته.

وبهذا يظهر لنا أنَّ المراد من الظلمات والنور، كل ما يطلق عليه اسم الظلمة واسم النور حِسًّا ومعنى، فيدخل تحته ظلمات الكفر ونور الإيمان، وسيأتي معنا في السورة استعمال الظلمات والنور بهذا المعنى في قوله الكريم: ﴿ أو من كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النَّاس كمن مثلُه في الظلمات ليس بخارجٍ منها كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾، كما سيأتي استعمال النور والظلمات بمعناهما الحسي في قوله تعالى: ﴿ وهو الذي جَعَلَ لكم النجومَ لتهتدوا بها في ظلماتِ البر والبحر قد فصَّلنا الآياتِ لقومٍ يعلمون ﴾.

وأورد الله تعالى كلمةَ الظلماتِ بصيغة الجمع لكثرةِ أسبابها وطرقِها، فللشرِّ والكفرِ أسبابٌ كثيرة، أو لكثرة ملل الكفر والضلال.

وفي الآية ردٌ على الثَّنَوِيَّة من المجوس القائلين بأنَّ النورَ والظُّلمة يقومان بذاتهما[٣]، ولذلك فهم يؤلِّهون النورَ والظلمةَ، وينسبون إليهما ما يقع من الحوادث.

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/١٠٤.

(٢) الأحزاب: الآية ٤.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي ٢/٣٨١.

كما أن الآية تردُّ على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، والقائلين بقدم الأنواع، والقائلين بقدم المادة من ملاحدة هذا العصر، فكل ما سوى الله تعالى مخلوق محدَث مسبوق بالعدم، والله سبحانه هو القديم الأول الخالق المبدع جل جلاله.

﴿ ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون ﴾ [١] أي: يجعلون له سبحانه نظيراً في العبادة كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿ تاللَّه إنْ كنَّا لفي ضلالٍ مبين. إذ نسوِّيكم بربِّ العالمين ﴾(١).

وأشار سبحانه في آياتٍ كثيرة إلى أنَّ الكفارَ ساووا بين المخلوق والخالق كقوله تعالى: ﴿ أم جعلوا للّه شركاء خلقوا كخلقه فتشابَهَ الخلقُ عليهم قل اللهُ خالقُ كلِ شيءٍ وهو الواحدُ القهَّار ﴾(٢).

و﴿ ثم ﴾ في الآية لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون، فهو سبحانه المتفرد بصفات الكمال، والخالق للسموات والأرض والظلمات والنور وحده، لم يشاركه في ذلك أحدٌ كما قال تعالى: ﴿ ما أشهدتُهم خلقَ السمواتِ والأرضِ ولا خلقَ أنفسهم وما كنت متخذَ المضلين عَضُداً ﴾(٣).

وهكذا تضمَّنت هذه الآيةُ الكريمة الأصلَ الكبير الذي يقوم عليه اعتقادُ المسلم المُوَحِّد، وهو التمييز بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كما تضمَّنت الردَّ على جميع الملل والنحل الضالة التي كان منشؤها عدم تمييز أصحابها بين صفات الخالق جل وعلا وصفات المخلوق، وهو ما تتجه إليه معظم آيات السورة، كما سيأتي معنا إن شاء الله.

بين أجلين

ثم توجهت الآيات الكريمة بالخطاب إلى الإنسان، لتبيِّنَ موقعَه في هذا الكون، والحكمة من وجوده، وتميُّزَه عن غيره بالمسؤولية أمام الله تعالى بعد هذه

---

(١) الشعراء: الآيتان ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) الرعد: الآية ١٦، انظر: أضواء البيان ٢/١٨١.

(٣) الكهف: الآية ٥١.

الحياة، وبدأت تذكِّرُ الإنسان ببدايته: ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُم مِنْ طينٍ ﴾ أي: الله تعالى الذي ابتدأ خلقكم من طين بخلق أبيكم آدم منه، أو ابتدأ خلق كل واحد منكم من نطفة مستَخْلَصةٍ من طين الأرض، كما قال جل شأنه: ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين. ثمَّ جعلناهُ نطفةً في قَرارٍ مكين ﴾[1].

﴿ ثمَّ قَضَىٰ أَجَلاً ﴾ أي: قدَّر وكتبَ أجلاً لموت كل واحد منكم، فبدايتك أيها الإنسان بمشيئة الله تعالى وقدرته، ونهاية حياتك على هذه الأرض بمشيئته سبحانه أيضاً وقدرته.

﴿ وأجلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ أي: وهناك أجلٌ معيَّن مثبَّتٌ عنده جل وعلا ولا يعلمه غيره؛ لبعثكم جميعاً يوم القيامة وحسابكم على ما أسلفتم في حياتكم الدنيا.

وجاء الإخبار عن الأجل الثاني بالجملة الاسمية تفخيماً لشأنه وتعظيماً لحاله، ولكونه مما استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحدٌ سواه، بخلاف أجل الموت فقد يعلم على وجه الإجمال والتقريب، على ما هو المعتاد من أعمار الناس، أو لظهور أماراته من الضعفِ والمرض والشيخوخة، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنَّ الله تعالى قضى لكل أحدٍ أجلين: أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه[2].

﴿ ثمَّ أَنْتُم تَمْتَرون ﴾ [٢]: أي ثم مع كل هذا تشكُّون في قدرة الله تعالى على بعثكم يوم القيامة، فمن أفاض الحياةَ وما فيها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدّة لها أصلاً، وهي الطين، كان أقدر على إفاضتها عليها مرةً ثانية بعد أن استعدّت لها وقارنتها مدة من الزمن[3].

وهكذا جعل الله تعالى لحياة الإنسان في الدنيا أجلاً تنتهي به، ولحياته في الآخرة أجلاً تبدأ به ولا تنتهي بمشيئته تعالى، والأجل الأول للابتلاء، وأما الثاني فللجزاء.

---

(١) المؤمنون: الآيتان ١٢ ـ ١٣.

(٢) انظر تفسير أبي السعود ١٠٧/٢١.

(٣) المرجع نفسه.

خالق كل شيء

ثم بيّن سبحانه كمالَ علمه وإحاطتِه بجميع أحوال الإنسان فقال: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَـوَاتِ وفي الأرض يعلم سِرَّكم وَجَهْرَكُم وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُون ﴾ [٣]: أي وهو الإله المعبود في السمـوات وفي الأرض، فلا معبودَ بحقٍ سواه جل وعلا، وقد أحاط علماً بسائر مخلوقاته، فهو كقوله تعالى: ﴿ وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ وهو الحكيم العليم ﴾[١].

ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: وهو الله الذي يعلم ما في السمـوات وما في الأرض من سرٍ وجهر، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السمـوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾[٢].

وليس في الآية أي دليل لبعض الفرق الضالة كالجَهْمية القائلين بأنه سبحانه في كل مكان، لأنَّ جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيءٍ منها رب السمـوات والأرض، الذي هو أعظمُ من كل شيء، وأعلى من كل شيء، ومحيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء[٣]، وهو سبحانه الموجود قبل كل سماء وفضاء وظلام وضياء وشمس وقمر، وعين وأثـر، والباقي أزلاً بعـد فناء كـل المخلوقات: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾[٤]، ﴿ كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[٥].

يتنزّه سبحانه أن يحويه مكان، وهو خالق المكان والزمان: ﴿ اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وَهُوَ على كل شيءٍ وكيل ﴾[٦].

وقد جاء في بعض الأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله ﷺ: «اللهم رب السمـواتِ السبعِ ورب العرشِ العظيم ربَّنا ورب كـلِ شيء، منزلَ التـوراة

(١) الزخرف: الآية ٨٤.
(٢) الفرقان: الآية ٦.
(٣) أضواء البيان ٢/١٨٢.
(٤) القصص: الآية ٨٨.
(٥) الرحمٰن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٦) الزمر: الآية ٦٢.

والإنجيل والفرقان، فالقَ الحبِّ والنَّوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلَك شيء، وأنت الآخر فليس بعدَك شيء، وأنت الظاهرُ فليس فوقَك شيء، وأنت الباطنُ فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»(١).

سُنَّة الله في المكذِّبين

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهم ﴾ التي أنزلها على رسوله ﷺ، أو التي بثَّهـا في المخلوقات وأظهـرها في المـوجودات ﴿ إلَّا كَـانُـوا عَنْهـا مُعْـرِضِينَ ﴾ [٤] تاركين لها وغير منتفعين بها، والسبب مسارعتهم إلى ردها وتكذيبها ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بالحَقِّ ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿ لَمَّا جَاءَهُم ﴾ من غير تدبُّر لمعانيه، ووقوفهم على ما فيه من الدلائل والبراهين التي تدل على صدقه ﴿ فَسَوْفَ يَأْتيهم أنباءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِؤُونَ ﴾ [٥] وهذا وعيد شديد لهم بسبب إعراضهم عن الحق واستهزائهم به، فعن قريب سيذوقون وبال أمرهم وعاقبة جحودهم واستهزائهم.

وتأكيداً لهذا الوعيد طلبت الآيات منهم أن ينظروا نظر الاعتبار في مصير الأمم قبلهم ليعرفوا سنَّة الله تعالى في الانتقام من المكذبين المعاندين: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كم أَهْلَكْنا من قبلِهم مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي: من أهل كل عصر، سمُّوا بذلك لاقترانهم ﴿ مَكَّنَّاهم في الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لكم ﴾ أي: جعلنا لهم قوةً وسلطاناً في الأرض أكثر مما جعلنا لكم، وأعطيناهم مع القوة والسلطان الغنىٰ والسعة في العيش والرزق ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيهم مِدْرَاراً ﴾ أي أنزلنا عليهم من السماء المطر الغزير المتتابع الذي يؤدي إلى كثرة الخيرات والأنهار الجارية ﴿ وَجَعَلْنا الأَنْهارَ تَجْري مِنْ تَحتِهم ﴾.

ومع كل هذا التمكين والغنىٰ الذي أنعم الله به عليهم كذبوا رسله وخالفوا نهجه وشرعه، فانتقم الله تعالى منهم ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِم ﴾ ولم تغنِ عنهم أموالهم شيئاً ﴿ وأَنْشَأْنا من بَعْدِهم قَرْناً آخَرِينَ ﴾ [٦] فاحذروا أن يصيبكم ما

(١) رواه أحمد ومسلم من حديث أبي هريرة.

أصابهم، وأن ينزل بكم مثل ما نزل بهم، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم، والرسولُ الذي كذبتموه أكرمُ على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلةِ العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه(١).

لقد بلغ القوم الغاية في العناد والمكابرة، حتى طلب بعضهم من النبي ﷺ أن ينزِّل الله تعالى عليه القرآن مكتوباً في الأوراق، كما نزَّل التوراة على موسى في الألواح، وأن ينزِّل الله تعالى عليه مَلَكاً يرَوْنه بأعينهم ليشهدَ أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، فردَّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً في قِرْطاسٍ فَلَمسُوهُ بِأَيْدِيهِم ﴾ بعدما شاهدوه بأعينهم، بحيث لم يبق لهم أي اشتباه ﴿ لَقَالَ الذينَ كَفَرُوا إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ مبين ﴾ [٧]: أي ما هذا إلا سحرٌ ظاهر واضح، وهذا شأن المُفْحَم المحجوج ودَيْدَنُ المكابِرِ اللجوج(٢).

الباحثون عن حتفهم

ثم بعد أن حكى الله اقتراحهم إنزال الملك: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عليه مَلَكٌ ﴾ بيَّن ما فيه من خطرٍ عليهم ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمْرُ ﴾ أي: لانتهى الأمر بهلاكهم لأنَّ قواهم البشرية لا تتحمل رؤية المَلَك، ولهذا كان الملائكة ينزلون على الأنبياء عليهم السلام في صورٍ بشرية، مع أنَّ الأنبياء مؤيَّدون بإمداد الله تعالى وتثبيته، ولم يرَ نبيُّنا ﷺ جبريل بهيئته الملكية إلا مرتين: أولاهما في الأرض عند غار حراء، وثانيتهما: عند سِدْرة المنتهى في السماء، قال تعالى: ﴿ ولقد رآه نَزْلَةً أخرى. عند سِدْرة المُنْتَهى. عندها جنَّة المأوى ﴾(٣).

أو: لو أنزلنا الملائكة عليهم لأنزلناهم بالعذاب والهلاك، كما قال تعالى: ﴿ ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بالحق وما كانوا إذن مُنْظَرين ﴾(٤)، ويؤيِّد هذا المعنى قوله هنا: ﴿ ثمَّ لا يُنْظَرُونَ ﴾ [٨]: أي لا يُمْهلون ولا يؤخَّرون بل يعاجلون بالعذاب والهلاك، فحالهم في هذا الاقتراح كحال الباحث عن حتفه بظلفه.

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٦٩.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٢/١١٢.
(٣) النجم: الآيات ١٣ ـ ١٥.
(٤) الحجر: الآية ٨.

ومن رحمته سبحانه وحكمته أن يرسل الرسول إلى الناس من جنسهم ليمكنهم مخاطبته والتلقي منه، ولو أرسل إليهم ملكاً لأرسله على هيئة الرجل ليتمكنوا من رؤيته، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَليهم ما يَلْبِسُونَ ﴾ [٩]: أي ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري، كقوله تعالى: ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنينَ لنزَّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً ﴾[1].

وتجاه هذه المكابرة والعناد الشديد، لا بد من تأنيس قلب النبي ﷺ، وتسليته عمَّا يلقاه منهم، وتثبيتِه في مواجهتهم، ولهذا قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ ﴾ أي: أحاط أو نزل أو حلَّ ﴿ بالذين سَخِروا منْهُم مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ [١٠]: أي نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤون به عندما كانت الرسل تتوعدهم به.

ولا تزال في الأرض آثار عذابهم باقيةً، فسيروا إليها وانظروا فيها نظرَ المعتبر والمتَّعِظِ ﴿ قُلْ سِيرُوا في الأَرْض ﴾ إلى بلاد صالح في الحِجْر وإلى بحيرة لوط، الذين تمرون عليهم في أسفاركم إلى بلاد الشام.

﴿ ثمَّ انْظُروا ﴾ نظرَ الاستبصار والاعتبار ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبينَ ﴾ [١١]: أي للأنبياء والمرسلين.

الرحمة أولاً

ولما كانت سورةُ الأنعام سورةَ البراهين القاطعةِ والملزمةِ، نجدُ فيها كثيراً من الآيات التي تأمر النبي ﷺ أن يواجههم بما فيها من الأسئلة التقريرية الملزمة والمفحمة، ومنها: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا في السمواتِ والأرض ﴾ خلقاً ومُلْكاً وتدبيراً؟ ولما كان القوم في غاية العناد أمرﷺ أن يتولى الإجابةَ عنهم ﴿ قُلْ لِلَّه ﴾ فهو الجواب المتعين بالاتفاق، ولا يستطيع أحد أن يجيب بغيره.

---

(١) الإسراء: الآية ٩٥، انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٦٩.

﴿ كَتَبَ على نَفْسِه الرَّحْمَةَ ﴾ أي: إنه تعالى قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة تفضلاً وإحساناً، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتبَ في كتاب فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تغلب غضبي» وفي رواية «سبقت رحمتي غضبي»[1].

ومعنى سَبْق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقاً بالخلق وأكثر وصولاً إليهم[2]. فرحمته سبحانه أولاً لخلقه، وآثار إحسانه وفضله الواصلة إلى خلقه جل وعلا أكثر من آثار غضبه، ويتمتع الخلق بآثار الرحمة قبل أن تصيبهم آثار الغضب بسبب تماديهم في الكفر والعناد، كما هو مشاهد من أحوال العباد، وصدق الحق تعالى بقوله: ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾[3].

فالله سبحانه وتعالى رحيم بعباده، وما خلقهم ليعذبهم، ومن رحمته سبحانه أنه لا يعاجل المعاندين والعصاة من عباده بالعقوبة، بل يمهلهم ويقبل توبة التائب منهم مهما كانت ذنوبه كبيرة وكثيرة، وما سبق ذكره في الآيات من الإخبار عن هلاك الأمم المكذِّبة لرسلها ليس من مقتضيات ذاته المقدسة، بل من جهة الخلق بسبب تكذيبهم وعنادهم وإصرارهم على كفرهم، كيف لا ومن رحمته أنه خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته بما أرسل إليهم من رسل وأنزل عليهم من كتب، وكلَّفهم بالسير على نهجه وشريعته، ليسعدوا به في الدنيا والآخرة.

الحياة والمسؤولية

وهذه أسباب التكليف والمسؤولية، ولهذا أخبر اللهُ عن يوم القيامة في الآية الكريمة بعدما أخبر عن رحمته والتزامه لها بفضله وإحسانه فقال: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يومِ القِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي: والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه، فيوم القيامة رحمة كبيرة من الله تعالى لعباده، ولا يدرك الإنسان قيمة حياته في الدنيا إذا لم يستشعر مسؤوليته عنها أمام الله تعالى يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/١١٥.

(٣) النساء: الآية ١٤٧.

إن الإيمان بيوم القيامة يعطي حياتنا في الدنيا معناها، ويعرفنا على جوهرها وحقيقتها، وبدونه تصبح حياتنا لهواً وعبثاً لا طعم فيها ولا قيمة، بل تصبح فارغة تافهة مسئمة.

إن الذين يعانون مشكلة الفراغ في حياتهم لا يستشعرون مدى مسؤولياتهم عن هذه الحياة، ولو علموا بمدى هذه المسؤولية وشمولها لما وجدوا في حياتهم وقتاً فارغاً يسعون جاهدين لشغله بشتى وسائل التسلية واللهو، وإن ملء الوقت الفارغ في حياة الإنسان المعاصر أصبح مشكلةً كبيرة، ونظرةٌ واحدة إلى الألاهي والملاهي المطروحة بين أيدي الناس تبين لنا مدى الجهد الكبير الذي يبذل لإنتاج هذه الوسائل والتي لا تعود على الإنسان بأيِّ فائدة حقيقية، ومع ذلك لم يستطع كل هذا أن يمتص الفراغ الذي يعاني منه الكثيرون، حتى لجأ بعضهم ليطرد السآمة والملل من حياته إلى سلوك طريق المغامرة والجريمة، لا حُباً بالجريمة وإنما حُباً بالمغامرة لتغيير سير حياته التي ملَّها وسئمها، والوقت إن لم تملأه بالخير امتلأ بالشر[١].

وهذا يبيِّن لنا فضله سبحانه علينا ورحمته بنا عندما شرَّفنا بالتكليف والمسؤولية، ففضلاً عن كون التكليف ينظم حياتنا، ويهذب سلوكَنا، ويقوِّمُ المعْوَجَّ من أخلاقنا، فإنه أيضاً يجعلنا نتذوق طعم الحياة الحقيقي ونعرف قيمتها وجوهرها.

وتتجلى يوم القيامة رحمته سبحانه بعباده أكثر مما هي عليه في الدنيا، ولقد بيَّن رسول الله ﷺ هذا المعنى في قوله: «إن للّه مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمةً يرحم بها عبادَهُ يوم القيامة»[٢].

وهذه الرحمات الكثيرة الكبيرة التي أخَّرها سبحانه ليوم القيامة خاصة بالمؤمنين وخالصة لهم، إذ الكافرون يوم القيامة محجوبون عن ربهم وعن رحمته كما قال تعالى فيهم: ﴿ كلا إنَّهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾[٣]، وقال أيضاً:

---

(١) انظر: حياتنا والموعد المجهول.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) المطففين: الآية ١٥.

﴿ إنَّ اللهَ لعن الكافرين وأعدَّ لهم سعيراً. خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾[1]، فما أعظم خسارتهم وما أشدَّ حسرتَهم ﴿ الَّذينَ خَسِروا أَنْفُسَهُم فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٢].

وكما دلَّ قوله سبحانه السابق: ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل للّه ﴾ على شمول ملكه سبحانه لكل مكان، دلَّ قوله اللاحق بعد ذلك على شمول ملكه لكل زمان: ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ والمراد ما سَكن فيهما أو تحرَّك، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر[2]، فهو كقوله تعالى: ﴿ سرابيلَ تقيكم الحر ﴾ أي: والبرد، ولا تنفك المخلوقات عن إحدى هاتين الصفتين، السكون أو الحركة، وهما من لوازم الحدوث.

﴿ وهو السَّميعُ العَليمُ ﴾ [١٣] السميع لكل الأصوات، والعليم بكل المخلوقات، في أي مكان وزمان.

كمال العبودية

وبعد أن بيَّنت الآيات الكريمة السابقة أنه تعالى متفرد وحده بصفات الكمال، وأنه تعالى وحده الخالق والمالك لجميع المكوَّنات، أمرت النبي ﷺ أن يبيِّن للناس شدةَ احتياجهم وافتقارهم إليه سبحانه، فلا ينبغي لهم التذلل والخضوع إلا إليه تعالى، وعليهم الاستسلام والانقياد لأمره جل وعلا.

ولما كان كمال العبد في كمال خضوعه واستسلامه لربه عز وجل، وكان النبي ﷺ أكمل الناس؛ لأنه أكثرهم خضوعاً واستسلاماً للّه تعالى، أبرزت الآيات هذا المعنى وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ والولي في اللغة: الناصر والصاحب، ومن يتولى الأمر أي: يقوم به، والمعنى: لا أتخذ وليّاً غير الله سبحانه.

---

(١) الأحزاب: الآيتان ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٢/١١٦.

﴿ فاطِرِ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: خالقهما ومبـدعهما على غيـر مثال سبق[١]، فهو تعالى الغنيُّ الذي لا يحتاج إلى أحد، والكل محتاجون إليه.

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ ﴾ أي: هو الذي يرزق ولا يحتاج إلى رزق أحد، كما قال عز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٢].

وهو سبحانه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من طعام وغذاء، وبهذا ردَّ جل وعلا على الذين وصفوا عيسى عليه السلام وأمَّه بصفة الألوهية، ببيان حاجتهما إلى الطعام فقال: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرسل وأمُّه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعامَ انظر كيف نبيِّنُ لهم الآيات ثم انظر أنىٰ يؤفكون ﴾[٣]. فكيف يتولى المخلوق غير خالقه ورازقه؟! وكيف يقابل فضله عليه وإحسانه فيتولىٰ غيره؟! وهو جل وعلا غني عنه وعن ولايته وطاعته وعبادته.

المسلم الأول

المسلم الأول هو نبيُّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أول هذه الأمة إسلاماً، وهو أيضاً أوّلُ الناس إسلاماً لأنه أعظمهم خضوعاً للّه تعالى واستسلاماً لأمره ومشيئته، وقد أُمر ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة للناس وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله والاستسلام له وحده، ليكون قدوتهم وإمامهم ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ فهو أول من أسلم للّه تعالى على الإطلاق في الرتبة، وأول من أسلم في الزمان بالنسبة إلى أمته عليه الصلاة والسلام[٤].

وكما أُمر ﷺ أن يكون القدوة الكاملة في الخضوع والاستسلام للّه تعالى، نُهي عليه الصلاة والسلام في الوقت نفسه عن كل مظهر من مظاهر الشرك، ليكون

---

(١) انظر: مختصر ابن كثير ١/ ٥٧٠.
(٢) الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.
(٣) المائدة: الآية ٧٥.
(٤) انظر: نظم الدرر ٧/ ٣٧.

أيضاً في التنزه عن الشرك قدوة وأسوة لكل الموحدين ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٤].

ثم أُمر عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يبيِّن للناس شدةَ خشيته للّه تعالى وعظيم خوفه منه، ومن المعلوم أنه كلما ازداد الإنسان قرباً من الله تعالى بطاعته وعبادته، ازداد تعظيمه للّه تعالى وخوفه منه؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «أما والله إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له» وفي رواية «فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»(١).

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [١٥] وإذا كان هذا حاله ﷺ مع ربه عز وجل، فكيف ينبغي أن يكون حالنا معه جل وعلا؟!

ما أحوج المؤمن أن يتذكر دائماً هذا المعنى، وأن يواجه نفسه بهذه الحقيقة كلما غفلت عن الله تعالى، وشردت عن باب فضله ورحمته، أو همَّت بمعصيته ففي الآية تحذيرٌ شديد من مقاربة المعاصي ومقارفتها، ومن حَامَ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه.

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: من يُصرف عنه العذاب يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ فلا نجاةَ لأحدٍ من عذاب الله تعالى إلا برحمته سبحانه وفضله، كما قال ﷺ: «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(٢).

﴿ وذلك الفوزُ المبين ﴾ [١٦] يعني أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين.

مالك النفع والضر

وتابعت الآيات الكريمة بيانَ شدةِ افتقار الإنسان إلى خالقه جل وعلا فبيَّنت أنه تعالى بيده النفع والضر، فهو المتصرف في خلقه كما يشاء، لا معقِّب لحكمه

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم، والمقاربة: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والسداد الاستقامة والإصابة.

ولا رادَّ لقضائه، وسَلَكت الآيات أسلوبَ التقرير، الذي يتناسب تماماً مع ما سبقه من إعلان الإذعان والاستسلام للّه تعالى مع الاستمرار بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بضرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فلا يزيله عنك إلا هو سبحانه، فالجأ إليه إذا أصابك شيء من الضر، وأنت تعتقد أنه وحده الذي يكشفه عنك، وعليك أن تأخذ بالأسباب التي توصلك بتقديره سبحانه ورحمته إلى السلامة والنجاة[1].

﴿وإنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ [١٧] هكذا على الإطلاق فقدرته سبحانه طليقة وسعت كل شيء، ولا يقدر أحد أن يرد فضله سبحانه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِهِ يُصِيبُ به من يَشاءُ من عبادِهِ وهو الغفورُ الرحيم﴾[2].

وكيف يستطيع أحدٌ أن يرد فضله جل وعلا ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلّت له الجبابرة، وعَنَت له الوجوه وقَهَرَ كل شيء، ودانت له الخلائق، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه[3].

والقهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، ومعنى: ﴿فوق عباده﴾ فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما نقول: السلطان فوق رعيته أي: بالمنزلة والرفعة[4].

ويمكن أن نقول: المراد فوقية تليق بجلاله تعالى وكمال صفاته.

والقاهر الذي يعمل مراده كله، ويمنع غيره مراده إن شاء؛ ولما كان في القهر ما يكون مذموماً نفاه سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ﴾ فلا يوصل أثر القهر بإيقاع المكروه إلا لمستحقه ﴿الخَبِيرُ﴾ [١٨] بمن يستحق كل شيء[5]، فهو سبحانه

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتاب: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.
(٢) يونس: الآية ١٠٧.
(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٧١.
(٤) فتح القدير ٢/١٠٤.
(٥) انظر: نظم الدرر ٧/٣٩.

حكيمٌ في جميع أفعاله، وخبيرٌ بمواضع الأشياء، فلا يعطي ولا يمنع إلا بمشيئته وحكمته جل جلاله.

أعظم شاهد وأكبر شهادة

ولا بدَّ لدعوة النبي ﷺ من شهادةٍ تؤيِّدُها، فأكرمه الله تعالى بأعظم شاهد وأكرم شهادة، قال عز وجل: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً ﴾ بدأت الآية بهذا الاستفهام لتنبيه الأسماع والقلوب لما يأتي ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بيني وبَيْنَكُمْ ﴾ فشهادته سبحانه أكبر شهادة وأكرمها، لأنه العليم الخبير، وهي شهادة باقيةُ خالدة، لا تنتهي بموت النبي ﷺ بل تستمر على مرِّ الزمان وكرِّ الأعوام؛ لبقاءِ الشاهد ودوامه جل وعلا، وهي في التنزيل الحكيم الذي أوحاه إلى نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي: لأنذركم به يا أهل مكة، وسائرَ من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين الإنس والجن.

أو: لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة(١). وهذا يدل على عموم رسالةِ الإسلام وشمول دعوة القرآن للإنس والجن في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، وأنَّ على المسلمين أن يعملوا على نشر القرآن الكريم بين الناس وإيصال معانيه إليهم بلغاتهم، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ(٢). فالقرآن هو حجّته سبحانه على عباده بعد موت نبيِّه ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبيَّ بعدَه.

ثم بيّنت الآيات بطلانَ ما هم عليه من الشِّرك والكفر بأسلوب التقرير والتحدي ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مع اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُل: لا أَشْهَدُ ﴾ فما قيمة شهادتكم بجانب شهادة الله تعالى؟ فهي شهادةُ ظاهرة البطلان والفساد، لا يليق بأحدٍ أن يشهد عليها، ﴿ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ على ذلك أشهد ﴿ وإنَّني بَرِيءُ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [١٩].

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/١١٨.
(٢) روح المعاني ٧/١١٩.

الكاذبون والمكذِّبون

وهناك شهود من البشر يعرفون صدقَ النبي ﷺ وصحة دعوته ورسالته، ولكنهم كتموا الشهادة بغياً وحَسَداً، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبناءَهُم ﴾ أي: يعرفونَ رسول الله ﷺ بحليته ونعوته المذكورة في كتبهم معرفة تامة لا شك فيها، ومع ذلك كَفَر أكثرهم به عليه الصلاة والسلام، وخانوا الأمانة التي ائتمنوا عليها، وكانت النتيجة ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لأن كفرهم وجحودهم عائد على أنفسهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢٠].

فلا ظلم أشد من هذا الظلم، ظلم الشهود الذين ائتمنوا على الشهادة فكتموها، ثم شهدوا بما يخالفها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ كهؤلاء الذين حرَّفوا كتابهم، وغيَّروا وبدَّلوا كلام الله تعالى فيه ﴿ أو كَذَّبَ بآيَاتِهِ ﴾ أي: كذَّب بالدلائل والبراهين المؤيِّدة للنبي ﷺ كما فعل مشركو مكة ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالمونَ ﴾ [٢١] من الكاذبين والمكذبين.

أين شركاؤكم؟

وعقَّبت الآيات على تكذيبهم وشركهم بعرض موقف لهم يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جميعاً ثُمَّ نقولُ لِلَّذينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُـمُونَ ﴾ [٢٢] أي: أين الشركاء الذين كنتم تدَّعون أنهم شركاء الله تعالى في استحقاق العبادة، وكنتم تتوجهون إليهم بالعبادة والطاعة؟ ولا يخفى ما في هذا السؤال من تهكُّم مرير بهم، واستخفاف بهؤلاء الشركاء.

﴿ ثُمَّ لم تكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي: لم يكن لهم حجة يحتجون بها، أو لم يكن لهم عذر يقدمونه ﴿ إلا أنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [٢٣] وهذا يدل على شدة عنادهم وكثرة كذبهم، فهم يكذبون في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا قال تعالى يُعَجِّبُ القارىء والسامع من شدة كذبهم ﴿ انظُر كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ مع علمهم أنه لا ينفعهم ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [٢٤] أي: غاب عنهم كذبهم الذي

كانوا يفترونه في الدنيا عندما عبدوا الأصنام، وقالوا عنهم: ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾.

ودلَّ قوله تعالى ﴿ وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُونَ ﴾ على أن القوم لما عاينوا هول الموقف دُهشوا وتحيَّروا حتى إنهم كذبوا، ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين لما قالوا ما قالوه من الكذب؛ لأنَّ جميع الحقائق تنكشف يوم القيامة[1]، فلا تزوير ولا كذب ولا تدليس في هذا اليوم.

المهلكون لأنفسهم

وتابعت الآيات هذا الأسلوب، وهو عرض موقف من مواقف المعرضين عن الحق في الدنيا، ثم التعقيب عليه بموقف من مواقفهم يوم القيامة، فعادت بنا الآيات إلى الدنيا مرة ثانية؛ لنشهد موقفاً من مواقف الإعراض والعناد، إعراضهم عن آيات القرآن الكريم، وهم يسمعونها من النبي ﷺ مباشرة.

﴿ وَمِنْهم مَنْ يَسْتَمِعُ إليكَ ﴾ ولكنهم لا يسمعون سماعَ إجابة، فلا ينتفعون بما سمعوا، لأن قلوبهم وأسماعهم محجوبةٌ عن أنوار الهداية ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلوبِهم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أي: جعلنا على قلوبهم أغطيةً وحجباً تحجبهم عن فهم كلام الله تعالى وتعقُّله، بسبب عنادهم وفجورهم، كما قال تعالى: ﴿ كلا بلْ رانَ على قلوبِهم ما كانوا يَكْسِبون ﴾[2].

﴿ وفي آذَانِهم وَقْراً ﴾ أي: وجعلنا في آذانهم صمماً عن السماع النافع لهم ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ فقد بلغ القومُ الغاية في العناد والإعراض، فمهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج والبيِّنات والبراهين لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف[3].

---

(١) روح المعاني ١٢٤/٧.

(٢) المطففين: الآية ١٤.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٥٧٢/١.

ومع كل هذا يأتون إلى النبي ﷺ بكل وقاحة وتبجح مجادلين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَروا إنْ هذا إلا أَسَاطِيرُ الأوَّلين ﴾ [٢٥] ولا يقولون مثل هذا القول الواضح الفساد والبطلان إلا تخديراً لمشاعرهم وأحاسيسهم وليبعدوا الناس عن الاستماع للقرآن الكريم.

﴿ وهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول ﷺ.

﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي: يبتعدون عنه فلا هم ينتفعون به، ولا يدعون غيرهم ينتفع به.

﴿ وإنْ يُهلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٢٦]: أي وما يهلكون إلا أنفسهم بموقفهم هذا من القرآن الكريم، ودعوةِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنَّ وباله يعود عليهم وهم لا يشعرون.

وقفة على النار

وجاء تعقيب الآيات الكريمة على هذا الموقف للمشركين في الدنيا بعرض موقف لهم يوم القيامة.

﴿ وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا علىٰ النَّارِ ﴾ وشاهدوا بأمِّ أعينهم ما فيها من الأهوال والأنكال، فحينئذٍ يكون حالهم حسرة وندامة على ما فرطوا في الدنيا ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنا نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ ولا نُكذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونَكُونَ من المُؤْمِنِينَ ﴾ [٢٧].

﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: ظهر لهم عذاب جهنم الذي كانوا ينكرون تحقُّقه ويكذبون به في الدنيا، أو ظهرت لهم القبائح والفضائح التي كانوا يسترونها عن الناس في الدنيا(١).

ويحتمل أنه ظهر لهم ما كانوا يعلمونه في قرارة أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا كما قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿ وجحدوا بها واستيْقَنتها أنفسُهم ظلماً وعُلوّاً فانظر كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾(٢).

---

(١) انظر: روح المعاني ١٢٩/٧.

(٢) النمل: الآية ١٤، انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٥٧٣/١.

وحاصل هذه الأقوال: أنهم عندما يقفون على جهنم ويرون ما فيها من أنواع النكال والعذاب تنكشف لهم الحقائق وتظهر الخفايا والسرائر، كما قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿ يوم تبلىٰ السرائر ﴾[1]. ولهذا ينكشف يوم القيامة أهل الرياء والنفاق، وأهل الزور والخداع، يظهرون جميعاً على حقيقتهم التي كانوا يتسترون عليها في الدنيا.

لقد أحاط الله تعالى علماً بكل أحوالهم، ما أظهروه وما أسروه، بل إنه سبحانه علم من أحوالهم التي لن تكون أنها لو كانت كيف تكون؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهوا عَنْهُ ﴾ أي: لو ردَّهم الله تعالى إلى الدنيا وحقَّق لهم أمانيهم بالعودة إليها ليستأنفوا حياتهم فيها من جديد، وليعملوا فيها العمل الصالح، لعادوا إلى كفرهم وجحودهم وفسادهم وإفسادهم.

﴿ وإنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [٢٨] في تمنيهم الرجعة إلى الدنيا رغبة بالإيمان والعمل الصالح.

وقفة بين يدي الله تعالى

وتعود بنا الآيات مرة ثالثة إلى الدنيا، لتعرض لنا موقفاً آخر من مواقف الكفار ﴿ وَقَالُوا إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [٢٩].

لقد رأى أكثر المفسرين أن هذه الآية معطوفة على ما سبقها من قوله تعالى: ﴿ ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه ﴾ ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾.

ولكني أرى أن الواو في أول هذه الآية للاستئناف، وأن الآية تحكي موقفاً جديداً من أنواع الكفار، وهم الكفار الدهريون، المنكرون لوجود الخالق سبحانه وتعالى، ويستتبع إنكارهم وجودَ الله تعالى إنكارَ يوم القيامة أيضاً، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾[2].

(١) الطارق: الآية ٩.

(٢) الجاثية: الآية ٢٤.

وهذا الذي أراه يتفق مع ما سبق تقريره في موضوع السورة من أنها جاءت تردُّ أقوال الكفار وتدحضُ مزاعمَهم في شتى ألوان كفرهم، ويتفق أيضاً مع قوله تعالى بعد ذلك في سياق الآيات: ﴿ وَلَوْ تَرى إذْ وُقِفوا على ربِّهم ﴾ أي وقف هؤلاء المنكرون لوجود الصانع بين يدي ربهم.

وتأمّل الفرق بين قوله تعالى السابق: ﴿ ولو تَرَى إذْ وُقِفُوا على النَّار ﴾ وبين قوله اللاحق: ﴿ وَلَو ترىٰ إذ وُقِفُوا على ربِّهم ﴾ فالقول السابق في الكافرين المشركين الذين يقرّون بوجود الخالق جل وعلا، ولكنهم يعبدون غيره، ويشركون به سبحانه، ويكذبون رسله، وينكرون يوم القيامة، وعذاب النار، وهو العذاب الذي هدَّدهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فناسبهم أن يقول تعالى عنهم: ﴿ ولو ترى إذ وُقفوا على النار ﴾.

والقول الثاني اللاحق ﴿ ولو ترى إذ وُقِفُوا على ربِّهم ﴾ في المنكرين لوجود ربهم الذي خلقهم وربَّاهم وأمدَّهم بكل أسباب الحياة، فناسبهم أن يقول فيهم: ﴿ وَلَوْ تَرى إذ وُقِفوا على ربِّهم ﴾ فالآية الثانية تحكي إذاً موقفاً آخر مغايراً للأول لنوع آخر من الكفار، وليست تكراراً وتأكيداً للموقف السابق كما رأى كثير من المفسرين، فالقول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد؛ لأنه يتفق أكثر مع بلاغة القرآن الكريم وفصاحته.

ومعنى قوله سبحانه ﴿ وُقِفوا على ربِّهم ﴾ تمثيل لحبسهم للسؤال والتوبيخ، أو بمعنى الاطلاع، أي: عرفوه سبحانه وتعالى حق التعريف[1]، فأيقنوا بوجوده وكماله ووحدانيته جل وعلا.

﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالحَقِّ ﴾ الثابت ﴿ قَالُوا بَلىٰ وَرَبِّنا ﴾ اعترفوا بالحق وأكدوا اعترافهم بالقسم به سبحانه ﴿ قَالَ فَذُوقُوا العَذَابَ بما كُنْتُم تَكْفُرُونَ ﴾ [٣٠]: أي فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم.

---

(١) روح المعاني ١٣١/٧.

ثم بيَّن سبحانه الخسارة الكبيرة التي تحل بالمنكرين ليوم القيامة عندما يأتيهم هذا اليوم فجأة على غير انتظار واستعداد ﴿ قَد خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بلقَاءِ اللَّهِ ﴾ خسروا حياتهم، وضيَّعوا أعمارهم بدون فائدةٍ ترجى؛ بسبب إنكارهم ليوم القيامة، فلا قيمة للحياة الدنيا ولا معنىً لها بدون الحياة الثانية، فهي كما سبق بيانه تعطي الحياة الدنيا قيمتها، وتبين حقيقتها وحكمتها.

﴿ حتّى إذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي: جاءتهم فجأة عندئذٍ تغشاهم الحسرات وتملأ نفوسهم الزفرات.

﴿ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلىٰ مَا فَرَّطْنَا فيها ﴾ أي: على عدم استعدادنا لها وتقصيرنا في العمل من أجلها، ومع الحسرة التي تذيب قلوبهم وتحرق نفوسهم يحاسَبون على أعمالهم التي عملوها، فيحشرون يوم القيامة وهم يحملونها على ظهورهم.

﴿ وَهُمْ يَحمِلونَ أَوْزَارَهُمْ عَلىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾ والأوزار: الذنوب والمعاصي، وأصل الوِزْر الحمل الثقيل، سمي به الإثم والذنب لثقله الشديد، ويجسِّدُ الله تعالى بقدرته الأوزار ليحملها أصحابها على ظهورهم مجسَّدةً؛ زيادةً في عذابهم ومعاناتِهم يوم القيامة.

ورأى بعض المفسرين أن قوله تعالى ﴿ يَحملون أوزارَهم ﴾ تمثيلٌ لحملهم مسؤولية معاصيهم وخطاياهم، وبيان سوء حالهم وشدة ما يجدون من المشقة والعقوبة، وذكر الظهور في الآية كذكر الأيدي في قوله: ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾[1].

أو يكون المراد تحقيرهم وتشبيههم بالدوابِّ المسخرة لحمل أثقال الإنسان في الدنيا. قال سيد قطب رحمه الله: (ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال ﴿ وهم يحملون أوزارَهم على ظهورهم ﴾ بل الدواب أحسن حالاً، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال، ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام، والدواب تحطُّ عنها

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢/١٢٤.

أوزارها فتذهب لتستريح، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلىٰ الجحيم، مشيَّعينَ بالتأثيم)[1].

والأولىٰ أن نحمل الحمل على الحقيقة، فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على تجسيد الأعراض والمعاني، وقد وردت عدة آثار تدل على ذلك، منها ما ورد في تجسيد ثواب قراءة سورتي البقرة وآل عمران يوم القيامة، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآنَ فإنه شافعٌ لأهله يوم القيامة، اقرؤوا الزهراوين ـ البقرة وآل عمران ـ فإنهما يأتيان يومَ القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو كأنهما فَرَقان من طير صواف يحاجّان عن أهلهما يوم القيامة»[2].

﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ [٣١]: أي ما يحملون.

الحياة الدنيا والآخرة

وماذا يبقىٰ من الدنيا إذا انسلخت عن الآخرة؟ إنها تصبح تافهةً لا قيمة لها، لا يبقىٰ فيها إلا العبث واللعب واللهو، ولهذا وصفها الله تبارك وتعالى بهذه الصفات فقال: ﴿ وما الحياةُ الدُّنْيَا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ لأنها بدون الشعور بالمسؤولية عنها أمام الله تعالى تصبح حياةَ الفارغين والفارغات، والتافهين والتافهات، الذين قصروا كلَّ همِّهم فيها على اللعب واللهو والعبث، والذين سبق حكاية قولهم: ﴿ إنْ هي إلا حياتُنا الدُّنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثين ﴾. وجلَّت حكمته تعالى أن يخلقهم للعبث واللهو ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُم عَبَثَاً وَأَنَّكم إلينَا لا تُرْجَعون. فتعالىٰ اللَّهُ المَلِكُ الحقُّ لا إله إلا هو ربُّ العَرْشِ الكريم ﴾[3].

فلا بد إذاً بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثانية، وهي خير لأهل الإيمان والتقوى الذين يستشعرون مسؤوليتهم أمام الله تعالى، فيملؤونها بطاعته ويعمرونها بعبادته.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٧٢.

(٢) رواه مسلم، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفرق: القطعة من الشيء.

(٣) المؤمنون: الآيتان ١١٥ ـ ١١٦.

﴿ ولَلدَّارُ الآخِرَةُ خيرٌ للَّذينَ يتَّقُونَ ﴾ أي: يتَّقون الله تعالى ويخافون من حسابه وعذابه يوم القيامة، وقد أفادهم هذا التقويم الرباني للحياة الدنيا والآخرة أنهم لم يصبحوا عبيداً للدنيا، لقد ركبوها ولم تركبهم، وعبَّدوها فذللوها للّه ولسلطانه ولم تستعبدهم، وهم يبتغون وجه الله ويرجون الدارَ الآخرة، فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة[1].

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلونَ ﴾ [٣٢] هذه الحقيقة، وتدركوا الحكمة من وجودكم في هذه الحياة الدنيا، وتشعروا بمسؤوليتكم عن أعمالكم أمام خالقكم سبحانه.

حقيقتان هامتان

وتعود الآيات مرةً ثانية إلى مواساة النبي ﷺ عما يجده من حزن ومعاناة بسبب ما يلقى من جحودهم وعنادهم. وتبرز في عودتها إلى مواساته حقيقتين هامتين:

أولاهما: مكانته عليه الصلاة والسلام الكبيرة عند ربه سبحانه وتعالى، والتي دلَّ عليها كثرة اهتمام الآيات بمشاعره عليه الصلاة والسلام، وحرصها على مواساته المرة تلوَ المرة، كلما عرضت موقفاً جديداً من مواقف العناد والاستكبار عند المشركين.

وثانيتهما: شدة عنادهم وجحودهم، وكثرة الأذى الذي كانوا يوجهونه إلى النبي ﷺ، حتى قال تعالى مواسياً له عليه السلام: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ ﴾ عندما كانوا يكذبونه عليه الصلاة والسلام، ويصفونه بأوصاف لا تليق به عليه السلام.

﴿ فإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ أي: إنهم في الحقيقة لا يكذبونك، إذ كنت ولا تزال فيهم الصادق الأمين، فما أصابك ما أصابك منهم إلا من أجلنا وبسببنا.

﴿ ولَكِنَّ الظَّالمينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [٣٣]: أي ولكنهم بآيات الله تعالى يكذبون.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٢/١٠٧٢.

فما أعظم مكانته عليه الصلاة والسلام عند ربه جل جلاله، فقد جعل سبحانه ما فعله المشركون به عليه الصلاة والسلام من التكذيب راجعاً إليه تعالى، فبلغ عليه الصلاة والسلام في هذا الغاية في جلالة القدر ورِفْعَة المحل والزلفىٰ من الله عز وجل إلى حيث لا غاية وراءه، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿ ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ بل نفى تكذيبهم عنه ﷺ، وأثبته لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿ إنَّ الَّذينَ يُبايعونَكَ إنَّما يبايعونَ اللَّهَ ﴾[1].

النصـر القريـب

وتابعت الآيات تسليةَ النبي ﷺ وتثبيتَه، وهي تحمل له البشارة بالنصر والظفر ﴿ ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَروا على ما كُذِّبُوا وأُوذُوا حتىٰ أتاهُم نَصْرُنا ﴾ فغاية الصبر النصر، وانتظار الفرج من الله تعالى عبادة، وموعدك مع نصر الله تعالى قريب، وهو النصر الذي يأتي إليك من الله، كما أتىٰ مَن قبلك من الرسل.

﴿ وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلماتِ اللَّهِ ﴾ التي كتبها سبحانه بالنصر والظفر لرسله، كما في قوله عز شأنه: ﴿ ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[2] وكما قال أيضاً: ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي إنَّ اللهَ قويٌ عزيز ﴾[3].

وهذا يبيِّن لنا بعض الحكم والعبر من قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهي ما أشار إليها سبحانه بقوله ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ المرْسَلينَ ﴾ [٣٤] فلك فيهم أسوة وقدوة.

وكان ﷺ شديدَ الحرص على إيمان المشركين، ومع ذلك فلا حيلةَ له معهم إلا الصبر، ولهذا قال سبحانه له: ﴿ وإنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْرَاضُهُمْ ﴾ أي عظم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/١٢٦.
(٢) الصافات: الآيات ١٧١ ـ ١٧٣.
(٣) المجادلة: الآية ٢١.

عليك إعراضهم عما يأتيهم من الآيات كما مر معنا في قوله: ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾.

﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً ﴾ منفذاً ﴿ في الأرض أو سُلَّماً في السماء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أي بمعجزةٍ من المعجزات التي اقترحوها وطلبوها منك، فافعل لتشاهد أنهم لا يزدادون عند إتيانك بها إلا إعراضاً وعناداً.

فالمراد بيان شدة حرصه عليه الصلاة والسلام على هدايتهم، بأنه لو قدر أن يتكلف النزول إلى أعماق الأرض أو الصعود فوق السماء، لفعله عليه الصلاة والسلام من أجل هدايتهم وإيمانهم، وبيان شدة عنادهم وإعراضهم.

ثم بيَّن تعالى قدرته على هدايتهم رغم شدة عنادهم، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى ﴾، ولكنه سبحانه شاء أن يجعل لهم إرادةً وكسباً واختياراً، فإعراضُهم عن الإيمان بسبب كسبهم واختيارهم، والإيمانُ لا يكون بالإجبار والإكراه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّك لآمنَ من في الأرض كلُّهم جميعاً أفأنت تكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ﴾[1].

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ [٣٥] الذين يظنّون أن هدايتهم متوقفةٌ على جلب آية مقترحة لهم، إنه الجد الصارم والحسم الجازم، كما قال سيد قطب رحمه الله، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية[2].

وإنه أيضاً يدل على أن هذا الكلام الذي يظهر فيه عزُّ الربوبية، كلام الله تعالى، أنزله على نبيه محمد ﷺ.

ثم أكَّد سبحانه كمال قدرته، وأنه قادر على جمعهم على الهدى فقال: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي: الذين فيهم قابلية السمع؛ لأن عقولهم وقلوبهم منفتحةٌ على الخير متوجهةٌ له، فيتدبرون ما يلقىٰ إليهم من آيات الله تعالى، وينتفعون بدلائلها وبراهينها، وأما هؤلاء المعاندون فهم كالأموات في عدم

---

(١) يونس: الآية ٩٩، انظر: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.
(٢) في ظلال القرآن ٢/١٠٧٨.

قابليتهم لسماع الخير وفي تبلّد مشاعرهم عن إدراك أنوار الهداية، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها ﴾.

ولهذا شبههم الله تعالى بالأموات الذين لا حسَّ فيهم ولا حياة، ومع ذلك فإنه سبحانه قادر على هدايتهم كما هو قادرٌ على بعث الأموات من قبورهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثمَّ إليه يُرْجَعُون ﴾ [٣٦].

وهو سبحانه قادر أيضاً على كل الآيات والمعجزات التي اقترحوها ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه قُلْ إنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ ينزِّلَ آيةً ولكنَّ أكثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٣٧]: أي لا يعلمون أنَّ عدم تنزيل الآيات المقترحة رحمة من الله تعالى بهم، فلو أنزل الله تعالى آية مقترحة وأعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها لأهلكهم سبحانه واستأصلهم بالعذاب، كما أهلك المكذبين من الأمم قبلهم(١).

لسنا وحدنا في الكون

والمخلوقات كلها محتاجة إلى الخالق العظيم سبحانه، شأنها في هذا شأن الإنسان وتستوي معه في صفة الحدوث والاحتياج والافتقار.

﴿ ومَا مِنْ دَابَّةٍ في الأرْضِ ﴾ أي: تدب على الأرض وتنتقل فيها ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ ﴾ أي: ولا طائر يطير ويتحرك مستعملاً جناحيه، ولم يكتشف الإنسان حتى الآن طائراً من المخلوقات الأرضية يطير بأكثر من جناحين، ﴿ إلَّا أُمَمٌ أمْثَالُكُمْ ﴾ لأن الله تعالى خلقهم كما خلقكم، وقدَّر لكل جنسٍ ونوعٍ وفردٍ منهم رزقه وأجله كما قدَّر لكم، وكل ذلك معلوم للّه تعالى ومكتوب في لوح القدر.

﴿ مَا فرَّطنا في الكتابِ مِنْ شَيءٍ ﴾ فجميع المخلوقات متساوون ومتماثلون في حاجتهم إلى الخالق البارىء، في حال الحدوث والابتداء، وفي حال الدوام والبقاء، ويمتاز الإنسان عنهم بالتكريم والتكليف والمسؤولية؛ لأن الله تعالى زوَّده بأهلية التكليف والمسؤولية.

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتاب: المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء.

وتدل كثرة أنواع المخلوقات وأجناسها على وحدانية خالقها سبحانه، كما أنها تشهد على عظيم قدرته وكمال مشيئته وحكمته وسعة علمه جل جلاله.

وكأن وصف المخلوقات في هذه الآية بالحركة من دبيب وطيران، جاء يقابل ما سبق تقريره في قوله تعالى ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ وسبق القول ثمة أن المخلوقات كلها لا تنفك عن إحدى هاتين الصفتين: السكون والحركة، وهما دليل على حدوثها وخلقها، وكما صرَّح تعالى هناك بشمول ملكه للساكنات، صرَّح هنا جل جلاله بشمول ملكه وقهره للمتحركات، فلا يسكن ساكن ولا يتحرك متحرك إلا بمشيئته سبحانه وعلمه وقدرته.

ثم ماذا بعد خلقهم وإمدادهم بأسباب الحياة والبقاء، مع كثرة أجناسهم وأنواعهم وكثرة أشكالهم وصفاتهم وخصائصهم؟ ماذا بعد كل هذا الخلق المحكم المتكامل؟

﴿ ثُمَّ إلىٰ رَبِّهم يُحْشَرون ﴾ [٣٨] فالبداية منه سبحانه، والنهاية إليه جل جلاله، ليقضي بينهم بعدله، قال عليه الصلاة والسلام: «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة حتى يقادَ للشاةِ الجَلْحاء ـ التي لا قرن لها ـ من الشاة القَرْناء»[١].

فخلقهم وإيجادهم لم يكن عبثاً ولا لعباً، والناس ليسوا وحدهم في هذا الكون حتى يكون وجودهم مصادفة وحتى تكون حياتهم سدى، إن حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمر منتظم يوحي بالتدبير والحكمة، ويوحي كذلك بوحدة الخالق ووحدة التدبير الذي يأخذ خلقه كله[٢]، ووحدة التدبير تظهر في التسخير، فلقد سخّر الله تعالى هذه المخلوقات بعضها لبعض، وسخرها كلها للإنسان وفائدته وحياته تكريماً له وتشريفاً، كما قال تعالى ﴿ ألم تَروا أنَّ الله سخَّر لكم ما في السمـواتِ وما في الأرضِ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً ومن الناس من يجادلُ في الله بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير ﴾[٣]. وقال أيضاً: ﴿ الله الذي سخَّر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٢/١٠٨٠.

(٣) لقمان: الآية ٢٠.

لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخَّر لكم ما في السمـوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١].

في الظلمـات

إن حال هؤلاء المكذبين المعرضين عن كل هذه الدلائل والبراهين، كما وصفهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿ والَّذينَ كذَّبوا بآياتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ فلا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر فيه نفوسهم، وتتقبله عقولهم، ولا ينطقون بالحق المجلجل من حولهم، لأنهم غارقون ﴿ في الظُّلُمَاتِ ﴾ ظلمات العناد والاستكبار، وظلمات الأهواء والشهوات، وظلمات الجهل والتقليد الأعمى، ظلمات متراكبة بعضها فوق بعض، غشيتهم من كل مكان، واشتدت عليهم مع مرور الأزمان، ولا سبيل لهم إلى الخلاص منها إلا بنور الهداية والإيمان، كما قال تعالى: ﴿ أو كظلمات في بحر لُجِّيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوق بعض إذا أخرج يدَه لم يكد يراها ومن لم يجعل اللهُ له نوراً فما له من نور ﴾[٢].

فإرادته سبحانه لا تُعَارَض، ومشيئته نافذة لا تُغَالَب ﴿ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٣٩] ومع اتصافه جلَّ وعلا بكمال المشيئة فهو متصف أيضاً بكمال العلم والحكمة، يدبِّر سبحانه أمر مخلوقاته بمشيئته وعلمه وحكمته، يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، ويجعلُ الظلمات والنور. إذاً علينا أن نلجأ إلى الله تعالى ليكشف عنا الظلمات، وينير لنا الطريق، علينا أن نتعرف عليه سبحانه في الرخاء، بعبادته وحده وطاعته، ليستجيب دعاءنا في المحن والبلاء، فالإنسان مفتقرٌ إلى فضل ربه وإحسانه ورحمته في جميع أحواله وأوقاته.

---

(١) الجاثية: الآيتان ١٢ ـ ١٣.

(٢) النور: الآية ٤٠.

الإنسان والدعاء

الافتقار والاحتياج يلابس الإنسان دائماً، لأنه جزء من خلقه وتكوينه، فحاجته إلى الطعام والشراب متولِّدة من تركيبه العضوي وبنيته المادية المخلوقة من الطين، وحاجتُه إلى المعرفة والعلم نابعة من تكوينه العقلي، وحاجتُه إلى الجنس والتكاثر والتوالد، أساسها حياتُه المحدودة الفانية. . .

وكثيراً ما ينسى الإنسانُ حقيقةَ ضعفِه وفقره، ويظنُّ نفسَه قوياً غنياً، فيتكبر ويتجبر ويعرض عن الحق معانداً جاحداً، ولهذا أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يذكّر المُعْرِضين المعاندين بحقيقة ضعفهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم وفضله، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذابُ اللهِ ﴾ كما أتى الأمم من قبلكم ﴿ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ أي أهوال يوم القيامة، ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ أي: هل تدعون غيرَ الله وتلجؤون إلى سواه؟ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٤٠]: أي إن كنتم حقاً صادقين في اعتقاد أنَّ هذه الأصنام التي تعبدونها نافعة لكم ودافعة عنكم الضرر والخطر.

ولما كان معنى هذا الاستفهام النفي، أي لا تدعون في حال الخطر غير الله تعالى، استغنى به عن جواب الشرط المتقدم، ثم أكده سبحانه وأثبته بقوله: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ وقدَّم المفعول على الفعل ليفيد الحصر والتخصيص، أي: بل تدعونه وحده ولا تدعون غيره، فهو كقوله سبحانه: ﴿ إيَّاكَ نعبد ﴾، لأنكم في قرارة قلوبكم وفي أصل الفطرة التي فُطرتم عليها، تعلمون أنه هو وحده الذي يكشف عنكم الضرر ويخلصكم من الخطر.

﴿ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إليه إِنْ شَاءَ ﴾ كشفه عنكم، فاستجابته سبحانه للدعاء منوطة بمشيئته وحده، فهو الفعال لما يريد، إن شاء أزال العسر، وأتاح اليسر، وإن شاء ترك الحال على ما قبل السؤال والابتهال لحكمة يعلمها سبحانه.

فهذه الآية تُقيِّد الإطلاق في مثل قوله تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[١] وقوله أيضاً: ﴿ وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذا دَعَانِ ﴾[٢].

---

(١) غافر: الآية ٦٠.

(٢) البقرة: الآية ١٨٦.

فثمة موانع تمنع الإجابة أو تؤخرها قائمة في الداعي نفسه، يعلمها سبحانه الذي يعلم السر وأخفى، فقد لا يكون الداعي مخلصاً في دعائه وقد يستبطىء الإجابة ويسيء الظن بالله تعالى، كما قال ﷺ: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [٤١]: أي تتركون ما تشركون به سبحانه من عبادة الأصنام والأوثان.

وقد يكون النسيان على حقيقته نظراً لشدة الهول والخطر، إذ ينسى الإنسان في مثل هذه الأحوال كل ما سواه سبحانه، ويرجع إلى أصل فطرته الأولى التي فطره الله تعالى عليها، وهذا يكون في حال مواجهة الإنسان لأخطار كبيرة محدقة به لا سبيل له إلى النجاة منها، كعذاب الاستئصال الذي أنزله الله تعالى بالأمم المكذبة للرسل، أو أهوال الساعة التي يستيقن الإنسان عجزه عن دفعها، ويصل إلى حد اليأس من النجاة منها، ويكون دعاؤه ربَّه سبحانه يشبه إيمان اليأس الذي يصدر عنه في مثل هذه الأحوال كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق ويئس من النجاة وأيقن بالهلاك ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعونُ وجنودُه بغياً وعَدْواً حتى إذا أدْرَكه الغرقُ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾(٢).

قسـوة القلـب

فعلى الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى في كلِ أحواله، لأنَّ احتياجه وافتقاره إلى الله تعالى صفةٌ لازمة له لا تنفكُّ عنه أبداً، فهو مخلوق من خلقه سبحانه، ومملوك له جل جلاله، وعبد من عبيده، وفي قبضة قدرته ومشيئته.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه أرسل إليهم الرسل ليذكروا الناس بحقيقة فقرهم واحتياجهم إليه جل جلاله، فيقبلوا عليه داعين مطيعين، فهو سبحانه الرحيم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) يونس: الآية ٩٠، وانظر: الإنسان بين التقدير والتكليف.

الكريم، يحب أن يرى عباده على أبواب رحمته وكرمه، وفي ساحات جوده وعطائه. ولكن أكثر الناس يعرضون عن دعوة الرسل مكذبين معاندين، فيسلِّط الله تعالى عليهم البلايا والمحن لعلها تخفف من عنادهم وتكسر شوكة تكبرهم، فتلين قلوبهم وتخشع نفوسُهم، ويقبلوا على ربهم سائلين ضارعين.

﴿ ولقَدْ أَرْسَلْنَا إلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِك فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ ﴾ أي بالشدائد والمصائب في أموالهم وأنفسهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [٤٢]: أي يتذللون إليه تعالى ويقبلون عليه ضارعين، ولكنهم بسبب قسوة قلوبهم يصرُّون على عنادهم، ويبالغون في استكبارهم.

﴿ فَلولاَ إذ جَاءَهُمْ بَأسنا تضرَّعُوا وَلكنْ قسَتْ قلوبُهُم ﴾ وقسوة القلب من أخطر أمراض النفس البشرية وأعصاها على كل دواء، وموالاتهم للشيطان تزيد من قسوة قلوبهم وعنادهم ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [٤٣] من المعاصي والكفر، والقلب الذي لا تردُّه الشدة إلى الله قلبٌ متحجِّرٌ لا خير فيه.

الاستدراج

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي: تركوا دعوةَ الرسل عليهم الصلاة والسلام وأعرضوا عنها، ولم يتعظوا بها، أو أنهم انهمكوا في معاصيهم ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء، استدرجهم الله تعالى بالرخاء.

﴿ فتَحْنَا عليهم أبوابَ كلِّ شَيءٍ ﴾ من الأرزاق والخيرات وأسباب الملذات المادية، استدراجاً لهم ومكراً بهم، ومدَّ الله تعالى لهم في زمن العطاء.

﴿ حتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ أي: حتى إذا اعتادوا على رغد العيش واطمأنوا إليه واغتروا به، وانشغلوا بالنعمة عن المنعم، فلم يذكروه ولم يشكروه بل استغرقوا في المتاع واستسلموا للشهوات، فأدى ذلك إلى فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وأدى هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها، عندئذٍ جاء موعد السُّنَّةِ الإلّهية التي لا تتبدل ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي: فجأة على غير توقع منهم وانتظار ﴿ فإذا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [٤٤]: أي آيسون قانطون.

قال الحسن البصري رحمه الله: مُكِر بالقوم وربِّ الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا. وقال قتادة: ما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغِرَّتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون[1].

وفي الحديث الشريف عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ فلما نسوا ما ذكِّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كل شيء حتىٰ إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾»[2].

هذه سنّة الله تعالى التي لا تتبدل في استدراج الأمم الكافرة المعاندة، فلا ينبغي لنا أن نغترَّ بما عندهم من متاع الدنيا وزخارفها، وبما لديهم من أسباب الرخاء، فهو والله عين البلاء.

لو تدبَّر المسلمون هذه الآيات الكريمة وتأملوا في معانيها لما وجد فيهم من ينظر إلى حضارة الغرب المادية نظرة الانبهار والإعجاب، فتراهم يندفعون إلى تقليدهم تقليداً أعمى، منسلخين عن مبادىء دينهم ومنهج كتابهم وسنّة نبيهم، وهم يظنون أنهم إذا لحقوا بهم وصلوا إلى مراتب الكمال، وحققوا لأنفسهم السعادة، مع أنهم لو تأملوا حقيقة حياتهم لوجدوهم أشقياء بما هم فيه لا سعداء، إن العذاب النفسي والشقاء الروحي والشذوذ الجنسي والانحلال الخلقي التي تقاسي منه هذه الأمم، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع، وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء[3]، وإن انتشار الآفات الاجتماعية كالخمور والمخدرات وعصابات المجرمين، وانتشار الأمراض الجنسية والشذوذ كالعقم وضعف المناعة، وانتشار التلقيح الصناعي الذي نقل عن الحيوان إلى الإنسان، ومخازن النطف البشرية والمتاجرة بها، كل ذلك مؤشرات على العواقب الوخيمة لهذه المجتمعات.

﴿ فَقُطِعَ دابرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا ﴾ أي: آخرهم فلم يبق منهم أحد؛ لأنه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٧٨.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) في ظلال القرآن ٢/١٠٩١.

سبحانه استأصلهم عن آخرهم ﴿ والحمدُ للَّهِ ربِّ العَالَمين ﴾ [٤٥] الذي طهَّر الأرض من ظلمهم وفسادهم وإفسادهم، فهو من النعم الجليلة التي يحمد عليها، والكمال له سبحانه في كل الأحوال، لا يزيده وجود موجود، كما مر في أول السورة ﴿ الحمد للّه الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾، ولا ينقصه فقد مفقود كما قال هنا ﴿ فقُطِع دابـرُ القومِ الـذينَ ظلموا والحمـدُ للّهِ ربِّ العالمين ﴾[1].

ما أضعف الإنسان

وتابعت الآيات كشف الحقيقة للإنسان، الحقيقة الماثلة في ذاته، والقائمة في نفسه، فهي تعرِّف الإنسان بالإنسان، تبين له حقيقة ضعفه وشدة حاجته وفقره حتى لا يغترَّ ولا يتكبر، ولا يعرض عن دعوة الحق ولا يتجبر.

﴿ قُل أَرَأَيْتُمْ إنْ أَخذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُم ﴾ فلا سلطان لكم حتى على أجزائكم وحواسكم؛ لأنكم لستم أصحابها الحقيقيين، فمالكها الحقيقي بارئها وخالقها الذي قال: ﴿ أمَّـن يملك السمع والأبصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله فقل: أفلا تتقون ﴾[2].

﴿ وَخَتَمَ على قُلوبِكُم ﴾ بأن غطَّى عليها وحجبها عن الإدراك والتعقل، والقلوب بيد الله سبحانه يقلبها كيف يشاء، ولا سلطان لأصحابها عليها كما قال سبحانه: ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾[3].

فما أضعف الإنسان الذي لا سلطان له على قلبه، ولا يملك سمعه وبصره، وهي أهم وسائل التمكين التي تمكنه من الاتصال بالعالم المحيط به وإدراك الأشياء من حوله، كما لا يستطيع أن يضمن بقاءها له لحظة واحدة.

﴿ مَنْ إلهٌ غيرُ اللَّهِ يأتيكم بِهِ ﴾ أي: مَنْ غير الله يردُّ عليكم ما أخذه الله تعالى منكم.

---

(١) انظر: نظم الدرر ١١٧/٧.
(٢) يونس: الآية ٣١.
(٣) الأنفال: الآية ٢٤.

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أي: انظر نظر المتعجب كيف يبيِّن الله لهم حقيقة ضعفهم وعجزهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم، ومع كل هذا البيان والتبيين ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [٤٦]: أي يعرضون عن كل ذلك.

وتأمَّل وحدة الأسلوب في السورة الكريمة، بين قوله هنا: ﴿ ثمَّ هُم يَصْدِفُونَ ﴾، وبين قوله في أول السورة: ﴿ ثمَّ الذينَ كفروا بربِّهم يَعْدِلون ﴾.

فما أظلمهم لأنفسهم! وما أشقاهم بعنادهم وإعراضهم!

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إنْ أتاكُم عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً ﴾ كما أتىٰ الأمم من قبلكم فجأة ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ بعد ظهور أماراته وعلاماته[١]، فقد يرسل الله تعالى بين يدي العذاب أمارات وعلامات تدل على اقترابه، كما فعل سبحانه عندما عذَّب عاداً قوم هود، بأن أرسل إليهم عارضاً في جو السماء كمقدمة لعذابهم ﴿ فَلمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أودِيَتِهِمْ قالوا: هذا عارضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلتُم بِهِ ريحٌ فيها عَـذَابٌ أليمٌ ﴾[٢].

﴿ هل يُهلَكُ إلا القومُ الظالمونَ ﴾ [٤٧]: أي لا يُهلك بهذا العذاب إلا المشركون الكافرون، والمعاندون المعرضون؛ لأنه سبحانه ينجِّي عباده المؤمنين الصالحين، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿ ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنَا والَّذينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقّاً علينا نُنْجِ المؤمنينَ ﴾[٣].

هكذا قدَّر الله تعالى بمشيئته وحكمته أن يكون الإنذار والتخويف للمعرضين المكذبين، وأن تكون البشارة للمؤمنين الصالحين ﴿ وَمَا نُرْسِـلُ المرسَلينَ إلَّا مُبَشِّرينَ ومنذِرينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَليهِمْ وَلاَ هُم يَحْزَنُونَ ﴾ [٤٨] هذه بشارة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين الصالحين، ﴿ وَالَّذينَ كَذَّبُوا بآياتنا يَمَسُّهُمُ العَذَابُ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ بِمَا كانوا يَفْسُقُونَ ﴾ [٤٩]: أي بسببِ فسقِهم وخروجِهم عن طاعة ربهم سبحانه.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/١٣٥.

(٢) الأحقاف: الآية ٢٤.

(٣) يونس: الآية ١٠٣.

لا يستوي الأعمى والبصير

والرسالة التي أكرم الله تعالى بها الرسل لم ترفعهم فوق مقام عبوديتهم له سبحانه، ولهذا أُمر النبي ﷺ، وهو أشرف المرسلين وخاتم النبيين، أن يقول للناس: ﴿ قُلْ لَا أقولُ لكم عندي خَزَائِنُ الله ﴾ أي: لا أقدر على ما يقدر عليه الله، فكأنَّ مقدوراتِه مخزونةٌ حاضرة عنده[1] لكمال قدرته جل وعلا.

﴿ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ ﴾ أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، فلا يعلم النبيُّ ﷺ من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى به، فعلم الغيب مما استأثر الله تعالى به ﴿ عالمُ الغيب فلا يُظهرُ على غيبه أحداً. إلا من ارتضَى من رسولٍ فإنه يَسْلُكُ من بين يديه ومِنْ خَلفِه رَصَداً ﴾[2].

﴿ وَلَا أقولُ لكم إنِّي مَلَكٌ ﴾ أي: ولا أدَّعي أني مَلك، إنَّما أنا بشرٌ مثلكم، شَرَّفني الله تعالى بالوحي وأنعم علي به.

﴿ إنْ أَتَّبِعُ إلَّا ما يُوحَى إِليَّ ﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحى إلي، فأنا عبد للّه، لا أتخطَّى حظي، ولا أتعدَّى حدي، ولا أثبت من ذات نفسي شيئاً، وقد أوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به خصوصاً، وأنذر به كل من بلغه عموماً.

والقرآن الكريم واضح الدلائل قاطع البراهين ثابت الحجج، فلا يعرض عنه إلا من كان أعمى البصيرة، ولا يقبل عليه إلا من نوَّر الله قلبه وبصيرته.

﴿ قُلْ هَلْ يَستَوي الأعمَى والبصيرُ أَفَلَا تَتفكَّرُونَ ﴾ [٥٠] فكما لا يستوي الأعمى والبصير، لا يستوي الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والنور والظلمات، وعلى العاقل أن يميِّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فالتفكر مطلوب، والحضُّ عليه منهج قرآني مضبوط بضوابط الوحي المنزَّل.

---

(١) روح المعاني ١٢٥/٧.

(٢) الجن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

الفَصْلُ الثَّانِي

تَوْجِيهٌ وَإِرْشَادٌ

تمهيد

لما وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى القول الفصل المميِّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والنور والظلمات، وطوَّقت الكافرين بالبراهين القاطعة، والحجج البالغة، وكَشَفت لهم حقيقَتَهم، وبيَّنت لهم حدَّهم، وعرَّفتهم قدْرَهم، وقرَّبت إليهم بصائرَ الحقِّ، بصيرةً بعد بصيرة، أمرت النبيَّ ﷺ أن يلتفت إلى الجانب الآخر، إلى المؤمنين الذين نوَّر اللهُ تعالى قلوبَهم وأحيا نفوسَهم، فقبلوا دعوته، وصدَّقوا برسالته، فلهم حقوق المسلمين ورَحِمُ المؤمنين، وهم محتاجون إلى هدى النبي ﷺ وتوجيهه وإرشاده.

وبهذا تبدأ الآيات الكريمة في السورة فصلاً جديداً، تبثُّ فيه الخطاب للمؤمنين: ترشدهم، وتبشِّرُهم، وتؤدِّبُهم، وتبيِّن مكَانتَهم عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ.

كرامة المؤمنين

﴿ وأنْذِر بِهِ ﴾ بالقرآن الكريم ﴿ الذينَ يَخافُونَ أن يُحشَرُوا إلىٰ ربِّهم ﴾ لأنهم مؤمنون بالله تعالى وبيوم القيامة، فالمؤمن محتاج إلى القرآن الكريم تلاوةً أو استماعاً يتدبر آياته فيزداد خشيةً للّه تعالى وتعظيماً له جلَّ جلاله؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحثُّ المؤمنين على تلاوة القرآن الكريم وحضور مجالسه، كقوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلّمه»(١)، وقوله أيضاً: «ما اجتمع قوم

(١) رواه البخاري ومسلم.

في بيتٍ من بيوتِ الله يَتْلون كتابَ الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نَزَلت عليه السكينة وغشيتهم الرحمةُ وحفَّتهم الملائكة وذَكَرهم الله في من عنده»[١].

﴿ لَيْسَ لَهُم من دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي: ليس لهم غير الله تعالى ناصراً ينصرهم ولا شفيعاً يشفع لهم حتى يأذن الله تعالى بالشفاعة لمن يشاء من عباده ويرضى، فهو القائل جل جلاله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[٢].

﴿ لَعَلَّهم يَتَّقُونَ ﴾ [٥١] أي: يتَّقون الله تعالى بتعظيم أمره واجتناب محارمِه، فللقرآن الكريم سلطانٌ كبير على قلوب المؤمنين وأرواحهم، يصفِّي أرواحَهم ويهذِّبُ قلوبَهم ويصقِلُ نفوسَهم، كما قال تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُليت عليهم آياتُه زَادَتهُم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكَّلون ﴾[٣] فالقرآن يزوِّد المؤمنين بالخشية التي تحجزهم عن المعاصي، وتدفعهم إلى الاستزادة من الطاعات والقربات.

ثم تابعت الآيات خطاب النبي ﷺ تأمره أن يهتم بالمؤمنين ويقبل عليهم، فلا ينبغي أن ينشغلَ بدعوة المشركين عنهم، فللمؤمنين كرامة عالية عند الله تعالى، وينبغي أن يُقدَّموا في مجالس النبي ﷺ.

ولما طلب بعض المشركين من رسول الله ﷺ أن يخصِّص لهم مجلساً خاصاً لا يشاركهم فيه أحدٌ من ضعفاء المشركين وفقرائهم، كبلال وعمار وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم، وأن يطردهم من مجلسه عندما يأتي إليه المشركون، أنزل الله تعالى رداً على طلبهم هذا قوله الكريم: ﴿ وَلَا تطردِ الذينَ يدْعونَ ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ ﴾ أي: لا تُبعِد المؤمنين الذين يواظبون على عبادة ربهم من أول النهار إلى آخره.

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي: مخلصين في عبادتهم، لا يريدون غير رضوان الله وثوابه، واجعلهم جلساءك وأخِصَّاءَك، كما قال تعالى: ﴿ واصْبِر نَفْسَك مَعَ الَّذِينَ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) الأنفال: الآية ٢.

يَدْعُونَ ربَّهم بالغَدَاةِ والعَشِيِّ يريدونَ وجهَه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرِنا واتَّبع هواهُ وكان أمرُهُ فُرُطاً ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ شهادةٌ رفيعةٌ من الله لهؤلاء الضعفاء من أصحاب النبي ﷺ، ردَّ الله تعالى بها على المستكبرين من المشركين الذين اتهموا المسلمين بأنهم لم يسلموا إلا بسببِ حاجتهم وفقرهم.

ثم أكَّد الله رده على المشركين بقوله: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي: إنْ كان لهم قصدٌ غير الإيمان والإسلام فأنت لا تحاسب عنهم، كما أنهم لا يحاسبون عنك، فكل إنسان مسؤول عن عمله، والله سبحانه هو الذي يسأله ويحاسبه.

﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٥٢]: أي فتكون بسبب طردهم من الظالمين الذين يضعون الأمور في غير مواضعها.

وحاشاه ﷺ أن يكون كذلك، وإنما نزلت الآيات بهذا النهي الصريح الجازم رداً على اقتراح المشركين الفاسد والاتهام الظالم لضعفاء المؤمنين، فتولَّى سبحانه بنفسه الدفاعَ عنهم؛ إظهاراً لشرفهم وكرامتهم عنده سبحانه، فللمؤمن كرامته وفضله عند الله تعالى.

التفضيل بالإيمان والتقوى

ثم بيَّن سبحانه أنه جعل التفاوت في العطاء والرزق سبباً من أسباب الابتلاء والاختبار في الحياة الدنيا، ولا علاقة له بالفضل والكرامة، فهما منوطان بالإيمان والتقوى، كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير ﴾[2] فالتكريم والتفضيل من القِيَم المرتبطة بالإيمان والتقوى، لا بمتاع الدنيا وزخرفها الزائل الحائل، والرزق والغنى متاح في الدنيا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم،

(١) الكهف: الآية ٢٨.
(٢) الحجرات: الآية ١٣.

تقيهم وفاجرهم، كما قال تعالى: ﴿ كلاً نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاءُ ربِّك محظوراً ﴾[١].

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعضٍ ﴾ أي: جعلنا التفاوتَ بين الناس بالرزق والعطاء اختباراً وامتحاناً، فاختبر الله تعالى بحكمته الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، فسقط المستكبرون من أغنياء المشركين في الاختبار، وكان برهان سقوطهم قولهم: ﴿ لِيَقُولوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيهِم مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أي: أنعمَ الله عليهم بالإيمان، ونحن المقدَّمون والرؤساء وهم الفقراء؟! ففي قولهم إنكار لأن يكون أمثال هؤلاء الضعفاء ممنوناً عليهم من بينهم[٢]، كما حكى الله عنهم في آية أخرى قولهم عن المؤمنين: ﴿ لو كانَ خيراً ما سبقونا إليه ﴾ الآية[٣].

وردَّ سبحانه على إنكارهم هذا واعتراضهم على ما منَّ به من هداية الضعفاء الفقراء بقوله: ﴿ أليسَ اللهُ بأعْلَمَ بالشَّاكرينَ ﴾ [٥٣] فهو سبحانه عليمٌ بأحوال عباده، حكيمٌ في أفعاله، يجعل هدايتَه وتوفيقَه لمن علم أنهم أهل لها، وأنهم يشكرونه على نعمته وفضله ولا يجحدونها.

رحمته سبحانه بالمؤمنين

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يكرم هؤلاء المؤمنين كلما جاؤوا إليه، فهم أهل التقوى والكرامة ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذين يؤمنونَ بآياتِنَا فَقُل سَلَامٌ عليكم ﴾ أي: ابدأهم بالسلام تَكْرِمَةً لهم، أو بلِّغهم سلام الله عليهم، وبشِّرهم برحمته تعالى لهم.

﴿ كَتَبَ رَبُّكم على نفسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أي: أوجب ربكم على نفسه الرحمة فضلاً منه وكرماً؛ لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين[٤].

وهي المرة الثانية في سورة الأنعام التي أخبر بها سبحانه أنه كتب على نفسه

---

(١) الإسراء: الآية ٢٠.
(٢) تفسير النسفي ٢/٤٦٤.
(٣) الأحقاف: الآية ١١.
(٤) تفسير الخازن ٢/٤١٥.

الرحمة، والظاهر من سِباق الآية وسياقها أنَّ هذه الرحمة التي أوجبها عز وجل على نفسه في هذه المرة خاصةً بالمؤمنين؛ تكريماً لهم وتشريفاً وإظهاراً لعنايته سبحانه بهم وفضله عليهم.

ومن آثار رحمته سبحانه بالمؤمنين ما بيَّنَهُ في قوله الكريم: ﴿ أَنَّه مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءَاً بِجَهَالَةٍ ﴾ أي: وهو في حال فعله للمعصية ومقارفته للسيئة متلبِّس بصفة الجهالة، وهي السَفَه والطَيْشُ وسوءُ التدبير وعدمُ النظر في العواقب، فآثر المعصيةَ على الطاعة، وجَهِل ما يترتَّبُ على فعله من المضارِّ والمفاسد.

﴿ ثمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد ارتكابه للسوء، برجوعه عنه ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ عمله بعد توبته وندمه على معصيته ﴿ فَأَنَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٥٤] يغفر ذنوب عباده المؤمنين ويرحمهم، فما أعظم فضله سبحانه عليهم!

وهكذا أظهرت لنا الآيات الكريمة طريقَ الإيمان، وميَّزته عن طريق الكفر بحيث لا يكون بينهما التباس واشتباه أبداً ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ لبيان صفات المؤمنين وصفات الكافرين ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبيلُ المجرمينَ ﴾ [٥٥]: أي ولتستوضح يا محمد - ﷺ - سبيلهم فتعاملَهم بما يجب أن يعاملوا به[1]. وهذا المعنى على قراءة ﴿ سبيلَ ﴾ بالنصب. وأما على القراءة بالرفع فالمعنى: لتتضح سبيلُ المجرمين، وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين[2].

عِـزَّةُ الإيـمـان

وبعد أن بيَّنت الآيات كيف ينبغي أن يعامل النبي ﷺ المؤمنين بيَّنت له بالمقابل كيف ينبغي له أن يعامل الكافرين المعاندين.

﴿ قُل إنِّي نُهيتُ أَنْ أَعبُدَ الَّذينَ تدعونَ مِنْ دونِ اللَّه ﴾ كائناً ما كان، لأن عبادتكم لغير الله تعالى قائمةٌ على اتباع الأهواء ومجرَّدةٌ عن أي دليل وبرهان.

﴿ قل لا أَتَّبِعُ أهواءَكُمْ ﴾ التي هي سبب ضلالكم، فما أنتم عليه هوىً لا

(١) انظر: تفسير النسفي وتفسير البيضاوي ٢/٤١٦.
(٢) فتح القدير ٢/١٢٠.

هدى، أربأ بنفسي عنه، ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [٥٦] إن اتَّبعتُ أهواءَكم؛ لأنَّ الهدى والضلال نقيضان لا يلتقيان.

ولا بد لكل من يقرأ هذه الآيات الكريمة ويتدبرها أن يستشعر عِزَّة الإيمان والثقة الكبيرة التي تملأ قلبَ المؤمن، وعلينا أن نتذكر أن النبي ﷺ أمر أن يواجه المشركين بكل هذه العزة والثقة وهو في مكة المكرمة، حيث المشركون لا يزالون في قوتهم وَمَنَعَتِهم، وكأنَّ الله تعالى أراد أن يبيِّن لهؤلاء المشركين المستكبرين المتعالينَ على فقراء المسلمين وضعفائهم، عزَّةَ الإيمان وقوتَه في قلوب المؤمنين، وضعفَ الشِّرك والكفر وتخلْخُلَه في قلوب الكافرين، الذين غلبت عليهم أهواؤهم وأعمتهم شهواتهم.

ثم بيَّنت الآيات بعد ذلك مصدر هذه العزة ومنبع هذه الثقة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى عليَّ ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ والذي أعرضتم عنه مكذبين، فهو مصدر عِزَّتي، ومنبع ثقتي، ومؤيِّد دعوتي، هو معجزتي الكبرى التي أتحداكم بها.

﴿ مَا عِنْدِي ما تستعجلُونَ بِهِ ﴾ أي: ما عندي غير القرآن الكريم من المعجزات التي تستعجلون إنزالها، أو: ما عندي العذاب الذي تستعجلون إنزاله، أو الساعة التي تستعجلون قيامها تكذيباً بها واستبعاداً لها.

﴿ إِنِ الحُكْمُ إلا لِلَّهِ ﴾ فهو وحده الحاكم سبحانه الذي يقضي بيني وبينكم.

﴿ يَقُصُّ الحَقَّ ﴾ أي: يقضي القضاء الحق ﴿ وَهُوَ خَيرُ الفَاصِلِينَ ﴾ [٥٧] بين الحق والباطل.

آيـة وحـديــث

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عندي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي: لانقطع وانتهى ما بيني وبينكم بإنزال العذاب عليكم، لكنَّ الأمر بيد الله تعالى الرحيم الحليم والعليم الحكيم ﴿ واللهُ أعلمُ بالظَّالِمينَ ﴾ [٥٨] المصرِّين على الكفر والشرك.

والجدير بالذكر هنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يغلب عليه ضعف البشر

وتسرُّعهم الذي جُبل عليه عامة البشر، وذلك عندما جعل الله تعالى بيده عليه الصلاة والسلام أمر هلاكهم واستئصالهم، وبشريته عليه الصلاة والسلام حقيقةٌ لا شك فيها، وقد أمر أن يواجه المشركين بها في آيات كثيرة، منها هذه الآيات التي نحن بصددها، ولكنه عليه الصلاة والسلام ارتفع عن مقام بشريته واستعلى على طبيعة البشر، عندما حكَّمه الله تعالى بهم، فحَكم عليهم ورحمهم، في الوقت الذي كان يعاني من شدّة أذاهم وكيدهم.

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يا رسول الله هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يليل بن عبد كلال[1]، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقَرْن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني مَلَك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين[2]، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»[3].

فلا معارضة بين الحديث الشريف وبين ما ورد في الآية الكريمة، ففي الآية إقرار بحقيقة بشريته عليه الصلاة والسلام، وأما فعله عليه الصلاة والسلام الذي دلَّ عليه الحديث الشريف فهو ارتفاع وسموٌّ فوق مستوى بشريته عليه الصلاة والسلام، بسبب الأخلاق الكريمة الرحيمة التي أدَّبه الله تعالى بها.

وقد ذهب ابن كثير في تفسيره للتوفيق بين الآية والحديث مذهباً آخر فقال: إنَّ هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له

---

(١) من رؤوس الشرك في ثقيف.

(٢) جبل أبو قبيس والجبل المقابل له في مكّة.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم في كتاب الجهاد رقم ١٧٩٥.

لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم[١].

مفاتح الغيب

وبعد هذا شَرَعت الآيات الكريمة تؤكد اتصافه جل وعلا بصفات الكمال والغنى، وتذكُر بعض المظاهر التي تدل على كمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ ﴾ ومفاتح: جمع مِفْتَح، ويقال: مفتاح، والمفتح: عبارة عن كل ما يحل غلقاً محسوساً، كالقفل على البيت، أو معقولاً كالنظر، وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان.

فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطْلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حَجْبه عنها حجبه[٢].

ويمكن أن يكون معنى (مفاتح الغيب) خزائنه، جمع مفتح وهو المخزن، ويكون المعنى: وعنده خزائن الغيب، والمراد منه: القدرة الكاملة على كل الممكنات[٣].

وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى» ثم قرأ: ﴿ إنَّ الله عنده علمُ السَّاعةِ وينزِّل الغيثَ ويعلمُ ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت إنَّ الله عليم خبير ﴾[٣].

ولا شك أنَّ هذه الخمس هي الأصول الكبرى التي تتفرع عنها أكثر المغيّبات، فعلمُ الساعة معناه الإحاطة بعمر الدنيا وزمانها من بدايتها إلى نهايتها،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٥٨٣.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٧/٢.
(٣) انظر: تفسير الخازن وتفسير البيضاوي ٢/٤١٨.
(٤) رواه البخاري، والآية من سورة لقمان: الآية ٣٤.

وتنزيل الغيث يعني الإحاطةَ التامَّةَ بأرزاق المخلوقات ومقاديرها وكيفية توزيعها، وعلمُ ما في الأرحام يعني الإحاطة بكل المخلوقات حالاً ومآلاً، ما هو كائن منها وما سيكون وكيف يكون، وما يتصل بكل فرد منها من خصائص وأطوار وميِّزات، مما يجعل الفكر البشري عاجزاً عن تصوره.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تغيضُ الأرحام وما تزدادُ وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار. عالمُ الغيب والشهادة الكبيرُ المتعال ﴾[1].

أضف إلى ذلك ما قررته العلوم الحديثة بأن كل مخلوق يحمل معه خصائص وموروثات كل المخلوقات التي تتفرع عنه وتتناسل منه، فعلمُ ما في الأرحام علمٌ يمتد عبر الزمان مع تسلْسُلِ المخلوقات وتوالدها إلى نهاية عمر الدنيا، حيث يتوقف التوالد والتكاثر.

وتمكُّن الإنسان المعاصر من معرفة جنس الجنين وكونه ذكراً أو أنثى بواسطة التحاليل المخبرية وآلات التصوير، معرفة جزئية صغيرة جداً بالنسبة لما في الأرحام من أسرار وعلوم غيبية لا يحيط بها إلا خالقها وبارئها سبحانه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أنه سبحانه وحده الذي أحاط علماً بأعمال وأقوال وحركات كل نفس حية على الإطلاق من بداية وجودها إلى نهايته.

كما أن قوله تعالى: ﴿ وما تدْري نفسٌ بأي أرض تموت ﴾ يدل على إحاطة علمه تعالى بالوقت المقدَّر لموت كل نفس ومكانه.

ومع ذلك فهذه الخمس مفاتح خزائن الغيب المغيَّب عنا، والذي هو معلوم للّه تعالى أزلاً وأبداً، وليست كل الغيب، فعلم الله تعالى لا يحدُّه حدٌ ولا يحصره عدٌّ، وما في الحديث الشريف يحمل على بيان بعض المهم لا على دعوى الحصر.

قال العلاّمة المفسِّر الألوسي رحمه الله: ولا شبهة في أن ما عدا الخمس من المغيَّبات لا يعلمه أيضاً إلا الله تعالى[2].

---

(١) الرعد: الآيتان ٨ ـ ٩.

(٢) روح المعاني ٢/١٧١.

ويؤكد ما ذهب إليه الألوسي قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي البرِّ والبَحْرِ﴾ هكذا على الإطلاق يتّسع علم الله تعالى ويمتد لكل ما في البر والبحر، ولا يقتصر علمه تعالى على ذوات المخلوقات، بل هو محيطٌ بكلِ أحوالها وحركاتها، دلَّ على ذلك قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ فإحاطة علمه تعالى لحركة الورقة الساقطة أنموذج لأحوال سائرها؛ لأنَّ الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطةِ لا شك أنَّ علمه محيط بغيرها من الأحوال والحركات. ويمتدُ علمه جل جلاله من حركة الورقةِ الميتة الساقطةِ إلى حركة البزوغ والنماء لكل حبة في بطن الأرض ﴿وَلاَ حبَّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ وَلاَ رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ [٥٩] أي: إلا يعلمها سبحانه، سواءٌ أريد بالكتاب المبين علمُه سبحانه أو اللوح المحفوظ، فمعناهما واحد في المآل(١).

إنّ في هذه الآية الكريمة جولةً تدير الرؤوس وتذهل العقول، كما قال سيد قطب رحمه الله، جولةً في آمادٍ من الزمان، وآفاقٍ من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب. . . ألا إنه الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن(٢).

النـوم والمـوت

ومن العلم الكامل وشموله، إلى القدرة الكاملة وإحاطتها بكل الموجودات والمخلوقات، وخصَّت الآيات الإنسان بالذكر على سبيـل التحدي للمعـاندين والجاحدين، ولبيان شدةِ افتقار الإنسان وحاجته إلى خالقه، وهو ما لمسنا تركيز السورة عليه في كثير من آياتها، فوجود الإنسان وبقاؤه وسائر أحواله وأطواره وتقلباته كلها منوطة بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته.

﴿وَهُوَ الذي يتوفَّاكُم باللَّيلِ﴾ أي: ينيمكم بالليل، استعير التوفي من الموت إلى النوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، فإنَّ أصل التوفي قبض الشيء بتمامه(٣).

---

(١) روح المعاني ٢/١٧٢.

(٢) في ظلال القرآن ٢/١٠١٢.

(٣) تفسير البيضاوي ٢/٤٢٠.

وهو في النوم قبض جزئي في وقت قصير محدد، وأما في الموت فقبض كلي يمتد إلى البعث من القبور يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ اللَّه يتوفَّى الأنْفُسَ حين موتِها والتي لم تمتْ في منامها فيمسكُ التي قضى عليها الموتَ ويرسلُ الأخرى إلى أجلٍ مسمى إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون ﴾[1] فالنوم هو الوفاة الصغرى بينما الموت الوفاة الكبرى.

فلا سلطانَ للإنسان على نفسه عند النوم، لا جَلباً ولا دَفعاً، إذ لا قدرة له على استجلابه، وكم من الناس من ينأى عنه النوم وهو يسعى إليه ويطلبه حتى إن بعضهم يطلبه بواسطة العقاقير والمخدِّرات، وكم فيهم من يحاول دفعه عنه فلا يستطيع رغمَ ما يتناوله من المنبّهات والمنشّطات، فللنومِ سلطانٌ قاهر على الإنسان، لأنه ليس من تدبيره وصنعه، وتأمَّل الآية الكريمة: ﴿ وَهو الذي يتوفَّاكم بالليل ﴾ فهو وحده سبحانه الذي يدبِّر ذلك ويقدِّره.

ومع أن النوم من الظواهر التي تحدث في كيان الإنسان بشكل متجدِّد ومستمر، ويحدث فيه تغيراً كبيراً وعميقاً يمتد إلى كل أجزائه المادية والنفسية فهو غَيْب عن الإنسان، ولا يدري كيف يحدث، يتجرّد الإنسان عندما يأتيه النوم من كل حَوْل وطَوْل، حتى من الوعي والإدراك، مع استمرار أسباب الحياة وظواهرها فيه بشكلها المعتاد، تبقى أنفاسه تتردد في صدره، وتستمر ضربات قلبه، ودماؤه تجري في عروقه، وتتجدد ملايين الخلايا في جسده... فمن يدبر كل هذا للإنسان في خلال نومه؟ وفي يقظته أيضاً، فهي عمليات تجري في داخل الإنسان في صحوه ونومه ولا تخضع لإرادته، فما أضعف الإنسان! ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[2].

﴿ ويعْلَمُ ما جَرَحْتُم في النَّهار ﴾ أي ما عملتم وكسبتم في النهار، وأسندت الآيةُ العملَ والكسبَ للإنسان، لأنَّ له إرادةً وكسباً فيه، مع أن الله تعالى أحاط علماً ومشيئةً وقدرةً بكل ما يصدر عن الإنسان.

---

(١) الزمر: الآية ٤٢.

(٢) الذاريات: الآية ٢١.

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فيهِ ﴾ أي: ثم يوقظكم في النهار، فكما أن النوم بمشيئته سبحانه وقدرته، فالانتباهُ واليقظةُ كذلك بمشيئته سبحانه وقدرته، ولا كسبَ للإنسان فيه ولا قدرةَ له عليه.

وخصَّ سبحانه الليلَ بالنوم، والنهار بالكسب، جرياً على النواميس الكونية المعتادة التي تعلَّقت بها مشيئته وحكمته سبحانه، وليس معناه أنه سبحانه لا يعلم ما جرحنا بالليل، وأنه لا يتوفانا بالنهار، فتخصيص الشيء بالذكر لا ينفي ما عداه[1].

وهكذا ينيمنا سبحانه ويوقظنا بقدرته ومشيئته حتى تنتهي أعمارنا وتحين آجالنا التي قدرها لنا بسابق علمه وإرادته ﴿ لِيُقْضى أجلٌ مُسَمًّى ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ إليهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتم تَعْمَلُونَ ﴾ [٦٠] في الدنيا ويحاسبكم عليه.

الطريق المرسـوم

فمن يستطيع الإفلات والتملُّص من هذا التقدير الإلّهي والقهر الرباني؟ ﴿ وَهُوَ القاهرُ فوقَ عبادِه ﴾ ومع القهر الرباني ﴿ وَيُرْسِـلُ عَلَيكُم حَفَظَةً ﴾ من الملائكة، تحفظ وتكتب أعمالكم، كما في قوله تعالى: ﴿ وإنَّ عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون ﴾[2] ولعلَّ الحكمة من توكيل الملائكة الحَفَظَةِ بالإنسان، إشعاره بوجود الرقباء عليه، وأن أعماله تكتب عليه، وستعرض يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

وينتهي عمل الحفظة بانتهاء حياة الإنسان ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ﴾ أي باشر مَلَك الموت وأعوانُه المرسلون لهذه المهمة قبضَ روح المتوفَّى ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [٦١]: أي لا يجاوزون الموعدَ المحدَّد لموته بزيادة أو نقصان.

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إلى اللَّهِ ﴾ إلى حكمه وجزائه يوم القيامة، وتحولت الآية من صيغة

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ٢/٤٢٠.

(٢) الانفطار: الآيات ١٠ـ١٢.

الإفراد إلى الجمع لوقوع التوفي على الانفراد، فلكل مخلوق حي أجله الخاص به، بينما البعث والحشر يوم القيامة على الاجتماع، ﴿ مَوْلَاهُمُ ﴾ مالكهم الذي يتولّى تدبير أمورهم، ﴿ الحَقِّ ﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل، أو الذي يتولى تدبير أمورهم في الحقيقة، فهو المولى الحقيقي لهم، ولا مولى لهم غيره.

﴿ ألَا لَهُ الحكمُ ﴾ لا لغيره ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبينَ ﴾ [٦٢] لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن(١).

إنه طريق مرسوم لكم ممتد من الدنيا إلى الآخرة، لا بد أن تسيروا فيه وتقطعوا مراحله دون توقف ولا تردد.

ظلمات البر والبحر

وفي الطريق عقبات وشدائد، لا نجاة لكم منها إلا بالله تعالى.

﴿ قُلْ من يُنَجِّيكُم من ظُلمَاتِ البرِّ والبحرِ ﴾ أي من شدائد البر والبحر، استعيرت الظلمة للشدة لاشتراكهما في الهَوْل وعدم الإبصار، فيقال لليوم الشديد: يوم مظلم(٢) ﴿ تَدْعُونَه تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ أي تدعونه متذللين تخفون في أنفسكم مثل ما تظهرون، فالآية تشهد لهم بالإخلاص في دعائهم، بسبب مواجهتهم للشدائد والمخاطر، كما تصور الحالة النفسية المضطربة التي يمرُّ بها الإنسان عند مواجهته للشدائد والمخاطر، مما يدل على شدة ضعفه وافتقاره.

تقولون في دعائكم ﴿ لَئِنْ أنْجانا مِنْ هَذه ﴾ الشدَّة والظلمة ﴿ لَنكونَنَّ من الشَّاكرين ﴾ [٦٣] المعترفين بفضلك ونعمتك، فهو كقوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُم في البرِّ والبحرِ حتى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْن بهم بريحٍ طيِّبةٍ وَفرحوا بها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الموجُ من كل مكانٍ وظنُّوا أنهم أُحِيطَ بهم دَعَوُا الله مخلصينَ له الدينَ لئن أنجيتَنا من هذِهِ لنكوننَّ من الشَّاكرينَ ﴾(٣).

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/١٤٥.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/٤٢١.

(٣) يونس: الآية ٢٢.

إنَّ تذكير الإنسان بحقيقة نفسه، وتعريفَه بحقيقة ضعفه، من القضايا الهامة التي ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة، فعندما يعرف الإنسان نفسَه يعرف ربه، ولهذا أبرزت آيات سورة الأنعام هذا المعنى وركَّزت عليه وهي تجادل المعرضين وتتصدى للمعاندين.

﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم منها ومنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴾ فلا نجاةَ لكم إلا بالله تعالى، هو الذي ينجيكم من هذه الشدة والمحنة، ومن كل شدة ومحنة.

فالآية تشير إلى كثرة الشدائد والعقبات التي تعترض طريق حياة الإنسان، ولا غنى له عن معونة الله تعالى للنجاة منها.

﴿ ثمَّ أنتُم تُشْركونَ ﴾ [٦٤] ثم أنتم بعد كل هذه النعم تعودون إلى الشرك في عبادته سبحانه، ولا توفـون بما صدر عنكم من عهود ومواثيق في أثناء الشدة والمحنة.

وأذكِّر القارىءَ الكريم بوحدة أسلوب التعبير في آيات السورة الذي برز في أول آياتها ﴿ الحمد للّه الذي خلق السمـوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾. وما أجمله سبحانه هنا في قوله ﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ فصَّله في تعقيبه على نجاتهم من الريح العاصف والبحر الهائج: ﴿ فلما أنجاهُمْ إذا هم يَبْغونَ في الأرضِ بغير الحقِّ يا أيُّها النَّاسُ إنَّما بغيُكم على أنفسِكُمْ متاعَ الحياةِ الدنيا ثمَّ إلينا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ تعملون ﴾[١].

التحذير من الفرقة والاختلاف

فما الذي جعلكم تتغيّرون، وعن باب فضله ورحمته تبتعدون؟! إنَّ نجاتكم من هذه الشدة والمحنة لا تعني انفلاتكم من قبضة قدرته وقهره جل جلاله، فأنتم تحت قهره ومشيئته في حال الرخاء كما كنتم في حال المحنة والشدة.

---

(١) يونس: الآية ٢٣. انظر الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

﴿ قلْ هُوَ القادرُ على أن يبعثَ عليكُم عَذاباً من فَوْقِكُمْ ﴾ من جهة السماء ﴿ أَوْ مِنْ تحتِ أرْجُلِكُم ﴾ كالزلازل والخسوف، فهو كقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَنْ في السماءِ أن يخسِفَ بكم الأرضَ فإذا هِيَ تمور. أم أَمِنْتُمْ مَنْ في السماءِ أن يُرْسِلَ عليكم حَاصِباً فَسَتَعْلمون كيفَ نذير ﴾[1].

﴿ أو يَلْبِسَكُم شِيَعاً ﴾ أي يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقاً مختلفين يقاتل بعضكم بعضاً، وهو معنى قوله: ﴿ ويذيقَ بعضَكُم بأسَ بعضٍ ﴾[2].

والآية وإن كانت تخاطب المعرضين المعاندين من الكفار والمشركين، إلا أنَّ فيها تحذيراً للمسلمين، ويبدو أن الله تعالى قدَّر أن يكون بلاء الأمة المسلمة بهذا النوع الأخير من العذاب، بلاء الاختلاف والاقتتال والانقسام إلى فِرَقٍ وشِيَعٍ وأحزاب.

ففي الحديث عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك» ﴿ أو يَلْبِسَكُمْ شِيعاً ﴾ قال: «هذا أيسر»[3].

وما أراد ﷺ تهوين أمر الاختلاف والاقتتال في الأمة، فأمره شديدٌ وخطير وعواقبه وخيمة، إنما أرادَ أنه أهونُ وأيسر من عذاب يستأصل الأمةَ المسلمة ويُفنيها فلا يبقى منها أحد، كما حدث للأمم الكافرة قبلها.

وقد سأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يجنِّبَ أمتَه هذا البلاء ويعافيها من داء الفِرقة والاختلاف، لكن قَدَرُ الله تعالى هو الغالب، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال: «سألت ربي ثلاثاً: سألته

---

(١) الملك: الآيتان ١٦ ـ ١٧.

(٢) تفسير الخازن ٢/٤٢٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتي بالسَّنَة ـ القحط والجَدْب ـ فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»(١).

فالفرقة والاختلاف والاقتتال من أنواع العذاب يبتلي الله تعالى به الأمة بسبب إعراضها عن طاعته وتركها لشريعته، قال تعالى: ﴿ إنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾(٢) وقال أيضاً: ﴿ وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾(٣).

﴿ انظر كيفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أي: انظر نظر المتأمِّل المتفكِّر كيف نوضِّح الآيات ونفسِّرها بذكرها مرة بعد مرة بأساليب متنوعة ﴿ لَعَلَّهم يفقَهُون ﴾ [٦٥]: أي لعلهم يفهمون حجَجَ الله تعالى وبصائرَه، فيتَّعظون بها وينتفعون.

ومع كل هذه البصائر والحجج والتنوع في أساليب عرضها، أعرضوا وكذبوا، وكان قوم النبي ﷺ أول المعرضين وأشد المعاندين.

﴿ وَكَذَّب به قَوْمُكَ ﴾ الذين تربطك بهم آصرة النسب ﴿ وَهُوَ الحقُّ ﴾ مع أن القرآن هو الحق الثابت المؤيَّد بالحجج والبراهين.

وتكذيب قريش للنبي ﷺ، وهم قومه، يبرِّىء الدعوة الإسلامية عن أي شبهة يمكن أن يتعلّق بها أعداء الإسلام، فقد نزَّه الله الدعوة الإسلامية عن العصبية القومية والعِرْقيَّة، فهي دعوة إنسانية شاملة في نشأتها وفي أهدافها.

وفي مقابل المعارضة الصادرة من قومه أُمر عليه الصلاة والسلام أن يعلن براءَته منهم، وأنه ليس موكَّلاً بهدايتهم، فمهمته قاصرة على تبليغهم دعوةَ ربِّهم سبحانه: ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بوكيلٍ ﴾ [٦٦].

﴿ لكل نَبَإٍ مُسْتقر ﴾ أي لكل خبرٍ في القرآن الكريم حقيقةً يؤول إليها، ومنتهىً ينتهي إليه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة ﴿ وَسَوْفَ تَعلَمون ﴾ [٦٧] صحة هذا الخبر وتحققه.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الرعد: الآية ١١.
(٣) الشورى: الآية ٣٠.

الابتعاد عن مجالس الكفر والفجور

وعادت الآيات إلى توجيه المؤمنين وإرشادهم بمخاطبة النبي ﷺ لأنَّه قدوتُهم وأسوتُهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها بغير تأمل ولا بصيرة، بل طوع الهوى كما يفعل خائض الماء في وضع رجله داخل الماء على غير بصيرة(١).

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فلا تجالسهم وانصرف عنهم، وقد جاء هذا التوجيه والإرشاد على عكس ما أمر به ﷺ في شأن المؤمنين ومجالستهم فيما مر معنا من قوله تعالى: ﴿ ولا تطرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يريدونَ وجهه ﴾.

ولا تدلُّ الآية الكريمة على المقاطعة الكاملة للكافرين والمشركين، فلا بد من مخالطتهم والاتصال بهم لتبليغهم دعوةَ الله تعالى، فهي مقاطعةٌ مؤقتة ما داموا يستهزئون بآيات الله سبحانه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ حتَّى يخوضوا في حديثٍ غَيْرِهِ ﴾ أي: غير حديثهم عن القرآن الكريم، وحينئذٍ يحلُّ لك أن تجالسهم.

وفي هذا دليل على تحريم الجلوس في أماكن المنكرات والمعاصي، وتحريم تلبية دعوة وليمة تشتمل على المنكرات والآثام، إلا إذا كنت قادراً على منعها.

﴿ وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ بأن يشغلك بوساوسه ويجعلك تنسى الأمر بالإعراض عنهم وترك مجلسهم. وهذا على سبيل الافتراض، إذ لا سبيل للشيطان إلى إشغال رسول الله ﷺ، ولذا عبَّر بـ ﴿ إن ﴾ الشرطية المزيدة ﴿ ما ﴾ بعدها(٢)، فمراد الآية بيان الحكم في هذه الحالة بالنسبة لعامة المؤمنين.

﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكرى ﴾ أي: بعد التذكر ﴿ مَعَ القومِ الظَّالِمينَ ﴾ [٦٨].

﴿ وَمَا عَلَى الَّذينَ يتَّقونَ مِنْ حِسابهم مِنْ شَيءٍ ﴾ أي: ما على الذين يتجنبون

(١) نظم الدرر ١٤٦/٧.
(٢) روح المعاني ١٨٢/٧.

مجالسةَ الظالمين من حسابهم من شيء، فهم غير مسؤولين عما يجري في هذه المجالس ما داموا معرضين عنها، والإعراضُ عنها تذكيرٌ لأهلها لعلهم يتّعظون ﴿ وَلَكن ذِكْرى لعلّهم يتّقُونَ ﴾ [٦٩]: أي لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخوض والاستهزاء.

إن مشاركة الظالمين في مجالس ظلمهم وفجورهم تشجيع لهم على الظلم والفجور ومن لا قدرةَ له على منع المنكر ودفع الظلم فلا يحضر مجالسهم وإلا كان مثلهم في الإثم والمسؤولية، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نزّل عليكُمْ في الكتابِ أنْ إذا سَمِعْتُمْ آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُستهزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيرِه إنكم إذاً مثلُهم إنَّ الله جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جهنّم جميعاً ﴾[١].

الاستمـرار في التبليـغ

ولا ينبغي التوقف عن تبليغ الدعوة مهما كانت العقبات والمعوِّقَات، كما لا ينبغي اليأس من هداية الكافرين مهما اشتدوا في كفرهم ولجُّوا في عنادهم، والانصرافُ عن مجالسهم في أثناء استهزائهم بالله تعالى لا يعني ترك تبليغهم وإنذارهم، فهو مقاطعة مؤقتة بحالة معينة.

﴿ وَذرِ الَّذين اتَّخذوا دينَهُم لَعِباً وَلَهْواً ﴾ أي: اترك الذين اتخذوا دين الإسلام الذي أُمروا به ودعوا إليه لعباً ولهواً[٢]، فالإسلام دينهم شاؤوا أو أبوا، آمنوا به أو كذبوا، فهو الدين الحق الذي لا دين سواه، كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الدين عند الله الإسلام ﴾ الآية[٣].

وما أعرضوا عن الإسلام إلا بسبب اغترارهم بالدنيا ﴿ وغرَّتهم الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي: خدعتهم بزينتها وزخرفها، أو فُتنوا باستمرارها ودوامها.

﴿ وَذَكِّر بِهِ ﴾ أي: ذكِّر بالقرآن الكريم ولا تترك وعظهم به ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نفسٌ بما

---

(١) النساء: الآية ١٤٠.

(٢) تفسير الخازن ٢/٤٢٦.

(٣) آل عمران: الآية ١٩.

كَسَبَتْ ﴾ مخافة أن تُسلم إلى الهلاك وتُرهن بسوء عملها، وأصل الإبسال والبَسْل: المنع، ومنه أسدٌ باسل لأن فريسته لا تفلت منه[1].

فكأنَّ ترك تذكيرهم ووعظهم يؤدي إلى إسلامهم لأعمالهم السيئة التي يحبسون في العذاب بسببها، كما قال تعالى: ﴿ كل نفسٍ بما كسبت رهينة ﴾[2] فتبليغُ الدعوة للناس وتذكيرهم بها إنقاذٌ لهم من شر أعمالهم، فما أعظم رحمة الله بعباده، بإرساله الرسل لينقذوا الناس من شرور أعمالهم وتبعات كفرهم وفجورهم.

وهذا يبيِّن لنا أهمية تبليغ الدعوة للناس وأهمية وعظهم بآيات القرآن الكريم، إنها عملية إنقاذ للنفوس البشرية من شِراكٍ نصبوها لأنفسهم بسبب سوء كسبهم واختيارهم، فلا غنى للناس عن دعوة الأنبياء ووحي الله تعالى؛ لأنهم بحاجة إلى من يحميهم من شرور أنفسهم ومن سيئات أعمالهم، إنهم بحاجةٍ إلى منقذٍ ينقذهم من ظلمات كفرهم وفجورهم.

وإن مسؤولية الإنقاذ واقعة على كاهل المسلمين؛ لأنهم وحدهم الذين يملكون وسائل الإنقاذ، وعندهم وحدهم أسبابُ السلامةِ والنجاةِ للبشرية فالقرآن الكريم لا يزال في أيديهم غضَّاً طرياً كما أُنزل، حفظه الله تعالى لهم لينقذوا الناس به، ليذكروهم به ويعظوهم به، فذكِّروا الناس بالقرآن ولا تسلموهم إلى شرورهم ومعاصيهم، بلِّغوهم القرآن وعظوهم به وأنقذوهم به من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿ ليسَ لهَا مِنْ دونِ اللَّهِ وَليٌّ وَلاَ شَفيعٌ ﴾ أي: ليس لها من يتولَّى دفع العذاب عنها يوم القيامة، أو يشفع ليخلصها من العذاب.

﴿ وإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ فلا نجاة لها من العذاب مهما حاولت أن تفدي نفسها بأي فدية.

﴿ أولئكَ الَّذينَ أُبْسِلوا بمَا كَسَبُوا ﴾ أي: أولئك الذين أُسلموا إلى العذاب بسبب كفرهم وفجورهم.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/٤٢٦.

(٢) المدثر: الآية ٣٨.

﴿ لهُم شَرَابٌ من حَميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفُرونَ ﴾ [٧٠] وكأنَّ الآية الكريمة بذكرها لبعض أنواع العذاب في جهنم تستثير هِمَمَ المسلمين ليقوموا بتبليغ الناس دعوةَ القرآن الكريم، لعل رحمة الله تعالى أن تدركَ بعضَهم قبل أن يُسْلَموا إلى العذاب ويَشربوا من الحميم، ويعانوا من العذاب الأليم.

حَيْرَةٌ وَقَلَق

وإنَّ في ابتعاد المؤمنين عن مجالس الكفر والفجور تحصيناً لهم ووقاية من أن يفتنوا عن دينهم ويرتدوا عن إسلامهم، فالمعاصي والآثام سريعة الانتشار تسري إلى النفوس بوسائل شيطانية كثيرة، وهي بريد الكفر، وانطلاقاً من هذه النقطة قرَّر الفقهاء القاعدة الشرعية الهامة: دفعُ المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة.

ولعل مراد الآية الكريمة التالية توضيح هذه الحقيقة: ﴿ قُلْ أندعُوا من دونِ الله ما لا يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنا ونُرَدُّ عَلى أعقَابِنا ﴾ أي: أبعد أن اتَّضحت لنا الأدلة والبراهين وجاءتنا البصائر، وعرفنا أن النفعَ والضررَ بيد الله تعالى المتصف بكمال العلم والقدرة، أبعد كل هذا نرجع إلى ظلمات الكفر والجهل.

﴿ بَعْدَ إذْ هَدَانا اللَّهُ ﴾ الذي وفَّقنا إلى الإيمان، وشَرَح صدورنا بالإسلام، ونوَّر قلوبنا ببصائر الحق، فنكون ﴿ كالَّذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأرْضِ ﴾ أي: كالذي استغوته وزيَّنت له هواه ودعته إليه، وقوله تعالى: ﴿ في الأرْضِ ﴾ تصوير لحال النزول والهبوط في الأرض، فكأنَّ الإنسان عندما يستجيب لتزيينات الشياطين ويخضع لهواه، ينزل من سماء الإيمان إلى حضيض الكفر، فهو كقوله تعالى: ﴿ ومن يُشْرِكْ بالله فكأنَّما خرَّ من السماءِ فتخْطَفُه الطيرُ أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾[١]. وقوله تعالى بعد ذلك ﴿ حَيْرَانَ ﴾ تصوير للقلق والاضطراب النفسي الذي يصاب به المرتد عن الإيمان، فقد ذاق مرارة الكفر بعد أن عرف حلاوة الإيمان.

إنه تصويرٌ لحالة الإنسان المادي المعاصر الذي غَمَس نفسه في شهوات

---

(١) الحج: الآية ٣١.

الأرض المادية ولذائذها الجسدية؛ ليستعيض بها عما فقده من لذة الإيمان وسكينته وبَـرْده وطمأنينتـه، ولكن هيهات، فلو اجتمعت متـع الأرض كلها ولـذائذهـا في يـد إنســان واحـد لن تعـوضه عن لحـظةٍ واحدة من لحـظات السكينة والـطمـأنينـة التي يتذوقها قلب الإنسان المؤمن بالله تعالى.

إن انتشارَ المخدِّرات والمسكرات والمفتِّرات بين الناس فـي العصر الحاضر، مع شيوع اللامبالاة، والشعور بعدم الانتماء، والانسلاخ عن أي قيمة خلقية وبشرية واجتماعية، كل ذلك يدل دلالةً واضحةً على شدة المعاناة والحَيْرة والقلق التي يعاني منها الإنسان المعاصر، لقد أصبح الإنسان في ظل هذه الحضارة المادية البعيدة عن دين الله وشرعه مخلوقاً تعيساً معرَّضاً لضغوط نفسيةٍ كبيرة، ولا سبيل له للخلاص من تعاسته وشقائه وحيرته وقلقه إلا أن يستجيب لدعاة الهدى والإيمان.

﴿ لَهُ أصحابٌ يَدْعُونَهُ إلى الهُدَى آئْتِنَا ﴾ تعالَ إلينـا، هلمَّ إلى السكينة والطمأنينة في ظل الإيمان بالله تعالى.

العــلاج

فلا علاج للاضطراب النفسي والحيرة والقلق إلا بالإيمان بالله تعالى والإكثار من ذكره سبحانه، ففيه السكينة والطمأنينة للقلوب الحائرة والنفوس المضطربة ﴿ الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكرِ الله تطمئنُّ القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبىٰ لهم وحسن مـآب ﴾[١].

هذا هو العلاج للحيرة والقلق، ولا علاج سواه، ولقد أخطأ سيد قطب رحمه الله خطأً كبيراً عندما تمنى للحائرين أن يسلكوا طريقاً واحداً، ولو كان طريق الضلال ليتخلصوا من حيرتهم، فقال: (إنه مشهـدُ ذلك المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض، ولفظ الاستهواء لفظ مصوِّر بذاته لمدلوله، ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحَّد ولو في طريق الضلال)[٢]. وأقول: ليته رحمه الله قال: يا ليته يرجع عن طريق الضلال،

(١) الرعد: الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) في ظلال القرآن ٢/١١٣١.

فالضلال لا خير فيه، وهو سبب حيرتهم ومصدرُ اضطرابهم وقلقهم، ولا يجوز لنا أن نتمناه لأحد أبداً.

وقد بيَّن لنا سبحانه بعد ذلك في الآية علاج الحيرة والقلق فقال: ﴿ قُل إنَّ هدى الله هو الهُدَى ﴾ فلا نجاة إلا في هدى الله، في الإيمان به والإكثار من ذكره ﴿ وأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لربِّ العالمينَ ﴾ [٧١] وبالاستسلام لأمره سبحانه ومشيئته.

وخير ما نحصِّن به قلوبنا من نزغات الشياطين وأسباب الحيرة والقلق أن نقيم الصلاة ونلتزم التقوى ﴿ وَأَنْ أَقيمُوا الصَّلَاةَ واتَّقُوهُ ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته واجتناب محارمه، وتذكروا مسؤوليتكم يوم القيامة ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ [٧٢].

ثم جاءت الآية التالية في ختام هذا الفصل تلخِّص كل ما أثبتته آيات السورة الماضية للّه تعالى من صفات الكمال والجلال.

﴿ وَهوَ الَّذي خَلَقَ السمـواتِ والأرضَ بالحقِّ ﴾ فهو جل جلاله الخالق وحده للخلق بالحق، فلا عبثَ ولا لعبَ في خلقه سبحانه وتعالى ﴿ وَيومَ يقولُ كُنْ فيكونُ ﴾ فله عز وجل كمالُ القدرة في الدنيا ويوم القيامة، فلا يمتنع شيء على قدرته سبحانه، ولا يحتاج إلى شيء من الأسباب والآلات، فهو قادر على كل شيء بدون شيء.

﴿ قولُهُ الحق ﴾ الثابت الذي يطابق الحقيقة ولا يخالفها أبداً ﴿ وَلَهُ المُلْكُ يومَ يُنْفَخُ في الصُّورِ ﴾ فهو سبحانه المالك يوم القيامة، ولا ملك لأحد سواه في هذا اليوم.

﴿ عالمُ الغَيْبِ والشهادةِ ﴾ وله كمال العلم جل وعلا، ومع كمال العلم والقدرة ﴿ وهو الحكيمُ الخبيرُ ﴾ [٧٣] إذاً فهو وحده المستحق للحمد، كما جاء في أول آيات السورة ﴿ الحمد للّه الذي خلق السمـوات والأرض وجعل الظلماتِ والنور ثمَّ الذين كفروا بربهم يَعْدِلون ﴾.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

مُنَاظَرَة وَرُدُودٌ

إبراهيم عليه السلام

ولما كان نبي الله إبراهيم عليه السلام عَلَماً من أكبر أعلام التوحيد ودعاته، وخير من دافع وجادل من أجل تقريره، جتى تمكَّن بفضل الله تعالى من إفحام خصومه والفلج عليهم، ذكرت السورة صوراً من جداله ومناظرته مع خصومه، ليكون الأسوة الطيبة والمثالَ الرفيع لكل المجادلين عن دين الله تعالى، والداعين إلى سبيله على بصيرة.

ومن المعلوم أن خصوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام ويعظِّمون النجوم، وكانوا على درجة عالية من التحضر والتمدن، فحضارة ما بين النهرين وبلاد الرافدين من أقدم الحضارات البشرية وأشهرها.

وبدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة أبيه إلى عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيمُ لأَبيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلهةً ﴾ وهو استفهام تعجب واستنكار، وكلمة ﴿ تتخذ ﴾ تدل على أنَّ أباه كان يصنع الأصنام بيده، وقد جاء في الأخبار أنه كان صانع أصنام.

وقد تلطَّف إبراهيم كثيراً في دعوته لأبيه، مع أنه لقيَ منه جفوةً وغِلظةً وعَناداً، ظهر ذلك فيما ذكره الله عنه مفصَّلاً في قوله تعالى: ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيمَ إنه كان صديقاً نبيّاً. إذ قال لأبيه: يا أَبَتِ لمَ تعبدُ ما لا يسمعُ ولا يُبصِرُ ولا يغني عنك شيئاً. يا أبتِ إني قد جاءني من العلمِ ما لم يأتك فاتّبعني أهدِكَ صراطاً سَوِيّاً. يا أَبَتِ لا تعبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطان كان للرحمٰن عصيّاً. يا أبتِ إني أخافُ أن يمسَّك عذابٌ من الرحمٰن فتكونَ للشيطان وليّاً. قال: أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا

إبراهيم لإنْ لم تَنْتَه لأرجمنَّك واهجرني ملياً. قال سلامٌ عليك سأستغفرُ لك ربي إنه كان بي حفيّاً ﴾[1]

ويبدو أن إبراهيم أغلظ الخطاب لوالده بعدما رأى إصراره على الكفر وشدة عناده، فقال: ﴿ إنِّي أراكَ وَقَوْمَكَ في ضَلَالٍ مُبينٍ ﴾ [٧٤] أي: في حَيْرة وجهل ظاهر، وتعكس لنا كلمة إبراهيم عليه السلام هذه قوةَ ثقته بنفسه واعتزازه بعقيدته، مع أنه انفرد بهذه العقيدة دون أهله وقومه، فهو يرى أباه وقومه في ضلال ظاهر واضح.

ملكوت السمٰوات والأرض

ومردُّ هذه الثقة والاعتزاز أن الله تعالى زوَّد إبراهيم بكثير من الأدلة القطعية والبراهين اليقينية، فكانت بصائر الحق قويةً واضحةً في قلبه وعلى لسانه، دلَّ على ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ نُري إبراهيمَ مَلكُوتَ السمـوات والأرض ﴾ أي نبيِّن لإبراهيم وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه[2].

والملكوت أبلغ من الملك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة، فزيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى.

فكأنَّ الله سبحانه وتعالى هدى إبراهيم عليه السلام إلى مشاهدة النواميس الدقيقة المبثوثة في الكون، والتي تدلُّ على وحدة خالقها ومبدعها جل جلاله فهي رؤيةٌ بالبصر والبصيرة، يستطيع الإنسان أن يحقق مثلها إذا أحسنَ استعمال عقله وسمعه وبصره، ولهذا أمرنا الله تعالى بها في عدة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿ أوَلم ينظروا في ملكوت السمـوات والأرض وما خلقَ اللهُ من شيء وأنْ عسىٰ أن يكون قد اقتربَ أجلُهم فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾[3].

---

(١) مريم: الآيات ٤١ ـ ٤٧. انظر: التوحيد والتنزيه في سورة مريم.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٥٩١/١.

(٣) الأعراف: الآية ١٧٥.

فرؤية الملكوت للاستدلال بما فيه من حكم ونواميس وبصائر على وحدانية الخالق سبحانه، ليست خاصة بإبراهيم عليه السلام.

وليس صحيحاً ما ذكر كثير من المفسرين من أنها رؤية بصر خاصة به عليه السلام رآها بعينه عندما وقف على صخرة، فكشف الله له عن السموات والأرض ورأى ما فيهما من عجائب المخلوقات، ورأى أيضاً العرش والجنة والنار ومكانه في الجنة، كل ذلك لا دليل عليه.

نعم، نستطيع أن نؤكد أنَّ رؤية إبراهيم عليه السلام لملكوت السموات والأرض أكمل من رؤية غيره بسبب المواهب الفكرية العالية التي أكرمه الله تعالى بها، فالأنبياء عليهم السلام أكمل الناس عقولاً وأصحهم أجساماً، فما بالك بإبراهيم عليه السلام خليل رب العالمين، وإمام الموحِّدين، وأفضل المرسلين بعد نبينا عليه السلام، وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أنه كمل له عقله وآتاه رشدَه منذ نعومة أظفاره ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ من قبلُ وكنَّا به عالمين ﴾[1].

ويؤكد ما ذهبنا إليه قوله تعالى في ختام الآية ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ ﴾ [٧٥]: أي ليستدلَّ به وليكون من الموقنين، واليقينُ عبارةٌ عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة[2].

المناظرة

ثم بيَّنت الآيات كيف ناظر إبراهيم عليه السلام قومه وجادلهم، ليبيِّن لهم بطلان ما كانوا عليه من تقديسٍ للنجوم وعبادةٍ لها؛ بسبب اعتقادهم أنها آلهة تؤثر في الحوادث الحادثة في الأرض.

وعُرف عن إبراهيم عليه السلام أنه كان في أثناء مناظرته لخصومه ومجادلته معهم يلجأ إلى الأسلوب الواقعي العملي؛ ليشدَّ أنظارهم إلى الحقيقة ويجعلها

---

(١) الأنبياء: الآية ٥١.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/٤٣٢.

قريبة محسوسةً منهم؛ ولهذا قام عليه السلام بتكسير الأصنام عندما أراد أن يبيِّن لقومه عجزَها وضعفَها، وعدمَ استحقاقها للعبادة، وأنها لا تضرُّ ولا تنفع.

وقد قصَّ الله علينا ما فعله بالأصنام في قوله الكريم: ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وَجَدْنا آباءَنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. . . فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم. قالوا فائتوا به على أعينِ الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنْتَ فعلتَ هذا بآلهتِنا يا إبراهيم. قال بل فَعَله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فَرَجَعُوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نُكسوا على رؤوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرُّكم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾(١).

وها هو عليه السلام عندما أراد أن يبيِّن لقومه عجز النجوم وضعفها، وأنها مخلوقةٌ كسائر المخلوقات لا تستحق أن تعظَّم وتعبد، انتظر حتى أقبل الليل وظهرت النجوم تلمع في ظلامه كما قال تعالى: ﴿ فلمَّا جَنَّ عليه الليلُ ﴾ أي: ستره بظلامه ﴿ رَأى كَوْكَباً ﴾ نجماً ﴿ قَالَ هَذا ربِّي ﴾ أي: قال لقومه: هذا ربي، وهو قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأنه أدعى إلى الحق وأنجى من الشَّغَب، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة(٢).

وبهذا علَّمنا عليه السلام الطريقة المثلى التي ينبغي اتباعها في مناظرة الخصوم ومجادلتهم، ولا شك أنه بهذا استحوذ على انتباه قومه، وتمكَّن من جلب أفكارهم وأنظارهم إلى ما سيقوله بعد ذلك ويقرره.

وانتظر عليه السلام حتى غاب النجم متبعاً الأسلوب العملي، كما سبق بيانه ﴿ فلمَّا أَفَلَ ﴾ أي غاب واحتجب عن الأنظار المشدودةِ إليه، فوجىء القوم بصوتِ

---

(١) الأنبياء: الآيات ٥٢ ـ ٦٧.
(٢) تفسير النسفي ٢/٤٣٢.

إبـراهيم عليـه السـلام يـدوِّي في قلوبهم ويمـلأ أسمـاعهم ﴿ قَـالَ لا أُحبُّ الآفِلينَ ﴾ [٧٦].

ولم يشأ عليه السلام أن يصدمهم بالحقيقة دفعةً واحدة، بل تدرَّج معهم تأليفاً لهم فقال: ﴿ لا أحبُّ الآفلينَ ﴾ ولم يقل لهم: لا أعبد الآفلين. فكلمة ﴿ لا أحبُّ ﴾ تتضمن معنى: لا أعبد، وتزيد عليها بالمعنى.

فعلى من يجادل المخالفين له في شأن العقيدة أن يحسن اختيار الألفاظ ذات المعنى الدقيق المناسب، والتي يتوصل بها إلى إفحام خصمه وإلزامه بما يريد.

وكلمة ﴿ الآفلينَ ﴾ لها دلالتها الكبيرة في موضوع المناظرة، فالأفول حركة، وهي من لوازم الحدوث، والأفول تغيُّر، والإلّه لا يتغير، والأفول غياب وضعف، والإله حاضر أبداً لا يغيب، قوي لا يعتريه ضعف. والأفول في وقت معيّن ومكان معين يدل على أن النجم محكوم بنظام ثابت لا يستطيع الانفكاك منه، والمحكوم لا يكون حاكماً ولا إلّهاً.

وبعضهم رأى أن إبراهيم عليه السلام كان في موقفه هذا في مجال النظر لنفسه، لا المناظرة، وقولهم هذا لا يتفق مع عصمة الأنبياء عليهم السلام وتنزههم عن الكفر والشرك منذ بداية حياتهم، ومع قوله سبحانه: ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رشْدَه من قبل وكنَّا به عَالِمين ﴾.

وقد احتجَّ أصحابُ هذا القول فقالوا: كيف انتظر قومه معه حتى غاب النجم؟.

ويسقط احتجاجهم هذا إذا علمنا أنَّ القوم كانوا يعظِّمون النجوم ويعبدونها والمعروف أنَّ عبَّاد النجوم ينتظرون ظهورها ليقوموا بمراسم عبادتها ويمارسوا طقوس تعظيمها، فالقومُ كانوا مستغرقين في عبادة النجم، مشدودين إليه.

ثم انتقل عليه السلام بمناظرته مع قومه إلى ما يرونه أكبـر وأعظم من الكوكب، إلى القمر ﴿ فلمَّا رأى القمَرَ بَازِغاً ﴾ يشقُّ بنوره الظلمة في أول طلوعه ﴿ قالَ هَذا ربِّي ﴾ كرَّرَ الأسلوبَ نفسه مع المناظرة في الكوكب، وانتظر أيضاً حتى غاب القمر.

﴿ فلما أفَلَ قالَ لَئِن لم يَهْدِني ربِّي لأَكُونَنَّ من القومِ الضَّالِّينَ ﴾ [٧٧] وبدأ عليه السلام في هذه المرة يصارحهم بالحقيقة ويواجههم بها، فأظهر لهم عجزه عن إدراك الحقيقة منفرداً بدون معونة من ربه سبحانه وتوفيقه، فالإنسانُ محتاجٌ إلى هداية ربه بالبيان أولاً، وهي مهمة المرسلين عليهم السلام، وبالمعونة والتوفيق ثانياً، وهي هداية الله تعالى لمن يشاء من عباده، وتبقى الإنسانيةُ تائهةً ضالةً بدون معونة رب العالمين وبيان المرسلين.

بـراءة وتفويـض

وكرَّر إبراهيم عليه السلام الأسلوب نفسه للمرة الثالثة مع الشمس، فلما أشرقت الشمس قال لقومه الذين يعبدونها عند الشروق كما قال في الكوكب والقمر.

﴿ فَلَمَّا رأى الشَّمسَ بَازِغَةً قالَ هذا ربِّي ﴾ أي هذا الطالع ربي، أو هذا الجِرْم ربي، واستعمل الإشارة بالمذكر صيانةً للرب تعالى عن شبهة التأنيث ولهذا قالوا في صفاته تعالى: علّام، ولم يقولوا علّامة؛ تفادياً من علامة التأنيث(١).

﴿ هذا أكبَرُ ﴾ من الكوكب والقمر، كما يظهر في النظر، قال ذلك كما مر معنا إنصافاً لخصومه ﴿ فلمَّا أَفَلَتْ ﴾ واجههم بالحقيقة كاملةً ﴿ قَالَ يا قومِ إنِّي بريءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ ﴾ [٧٨].

وقوله ﴿ يا قومِ ﴾ يؤكد أنه عليه السلام كان مناظراً لقومه لا ناظراً لنفسه. ولم يكتف عليه السلام بإعلان براءته من كل مظاهر الكفر والشرك التي كان قومه عليها، بل أخذ يعرفهم بالإلّه الحق الذي يجب أن يتوجهوا إليه وحده بالعبادة والطاعة، واستعمل عليه السلام أسلوب الإخبار عن نفسه ليكون لهم قدوة ومثلاً، فقال بصيغة الخبر المؤكد ﴿ إنِّي وجَّهتُ وَجْهِيَ ﴾ أي: وجهت عبادتي وطاعتي، لأنَّ من كان مطيعاً لغيره منقاداً إليه فإنه يتوجه بوجهه إليه، فتوجيه الوجه كناية عن الطاعة(٢).

---

(١) انظر تفسير النسفي ٢/٤٣٥.

(٢) روح المعاني ٧/٢١٣.

﴿ لِلَّذي فَطَرَ السمـواتِ والأرضَ ﴾ أي: أبدع خلقَ السمـواتِ والأرض وخلقهنَّ على غير مثالٍ سبق.

﴿ حنيفاً ﴾ مائلاً عن كل الملل والعقائد المخالفة للتوحيد ﴿ وَمَا أَنَا من المُشْرِكينَ ﴾ [٧٩] في عبادته أحداً من خلقه.

وقابل قوم إبراهيم عليه السلام موقفَه هذا بمخاصمته ومجادلته وتهديده بآلهتهم أن تصيبه بمكروه ﴿ وحاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ فردَّ عليه السلام عليهم مستنكراً جدالهم ﴿ قال أتحاجُّونِّي في اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أي: أتجادلونني في وحدانية الله تعالى وهو الذي دلَّني على وحدانيته بالبصائر التي بصَّرني بها، والدلائل التي أرشدني إليها، ولعله عليه السلام أراد ما مرّ معنا من قوله جل وعلا ﴿ وكذلك نري إبراهيمَ ملكوتَ السمـواتِ والأرضِ وليكون من الموقنين ﴾.

ثم ردَّ على تخويفهم له من آلهتهم فقال: ﴿ وَلا أخافُ ما تُشْرِكُونَ بهِ ﴾ أي: لا أخاف من هذه الآلهة التي تعبدونها؛ لأنها لا تضر ولا تنفع ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاء رَبِّي شَيْئاً ﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها، فهو سبحانه قادر أن يجعل فيما يشاء نفعاً وفيما يشاء ضراً، فالنفع والضرر منوط بمشيئته سبحانه وحده، وهكذا فوَّض عليه السلام أمره للّه تعالى بعد أن أعلن براءته من الأصنام.

﴿ وَسِعَ ربِّي كُلَّ شَيءٍ علماً ﴾ أي: أحاط علمه سبحانه بكل شيء، فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها[١].

وبهذا احتاط عليه السلام لنفسه ولدينه، فلن يستطيعوا أن ينسبوا إلى آلهتهم شيئاً من التأثير إذا قدَّر الله تعالى عليه بعض المكروه، كما أظهر عبوديته واستسلامه للّه تعالى ورضاه بقضائه وقدره جل جلاله الذي له كمال العلم وتمام المشيئة، فلا يخرج شيء عن علمه ومشيئته أبداً.

﴿ أفلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [٨٠] فتميِّزوا بين الإِله العالم القادر وبين هذه الأصنام الضعيفة العاجزة، فالأمر واضح ظاهر لا يحتاج إلى عَنَاء وتفكّر، لا يحتاج إلا إلى شيء من التذكر.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٢/٤٣٧.

أمـنٌ وخَـوْف

﴿ وَكَيْفَ أخافُ ما أَشْرَكتم ﴾ من الأصنام والأوثان، وهي مأمونةُ الخوف بسبب عجزها ﴿ ولا تخافونَ أنَّكم أشركتُم بالله ﴾ وهو أهل أن يخاف ويخشى، وقد أشركتم به ﴿ ما لم يُنزِّل بِهِ عَليكُم سُلْطاناً ﴾ يعني: ما ليس لكم فيه حجة ولا برهان، فكأنه عليه السلام قال لهم: ما لكم تنكرون عليَّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف(١).

﴿ فأيُّ الفريقَيْنِ أحقُّ بالأمنِ ﴾ من العذاب، الموحِّدون أم المشركون؟ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٨١] أي: إن كنتم من أهل العلم فأخبروني عما سألتكم عنه، ولا يخفى ما في كلامه عليه السلام من تهكم مرير بهم.

وجاء قوله عز وجل بعد ذلك على سبيل الاستئناف يفصل بين الفريقين المتناظِرين، فيشهد بصحةِ قول إبراهيم عليه السلام ويؤيده ﴿ الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُم بظلمٍ ﴾ أي: لم يشوبوه ولم يخلُطوه بشيء من الشِّرك، بسبب إخلاصهم للّه تعالى، فالشِّرك أعظم أنواع الظلم، دلَّ عليه ما جاء في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلم ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه؟! فقال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ يا بنيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّركَ لظلمٌ عظيم ﴾ إنما هو الشرك»(٢).

﴿ أولئك لَهُمُ الأمنُ ﴾ يوم القيامة، فلا يصيبهم ما يصيب الناس من الفزع الأكبر في هذا اليوم، كما قال تعالى فيهم: ﴿ لا يحزُنُهم الفزعُ الأكبر وتتلقاهم الملائكةُ هذا يومُكُم الذي كنتم توعدون ﴾(٣).

﴿ وهم مُهْتَدونَ ﴾ [٨٢]: أي وهم في الدنيا على هدىً ورشاد.

---

(١) تفسير النسفي ٢/٤٣٧.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الأنبياء: الآية ١٠٣.

وهكذا خصَم إبراهيم عليه السلام قومَه، وغلبهم بحجته التي أيَّده الله تعالى بها، وبصيرته التي شَرَح الله صدره لها، فقال سبحانه يبيِّن فضله عليه: ﴿ وتلكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيمَ على قومِهِ نرفعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نشاءُ ﴾ بما نعطيهم من العلم والحكمة، فالعلم الذي يدل على الله تعالى شرفٌ لصاحبه، وسعادةٌ في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ يرفعِ اللَّهُ الذين آمنوا منكم والذينَ أوتوا العلم درجاتٍ والله بما تعملون خبير ﴾(١).

﴿ إنَّ ربَّكَ حَكيمٌ ﴾ في كل أفعاله وأقواله ﴿ عليمٌ ﴾ [٨٣] بأحوال عباده.

شجـرة النبـوة

وتابعت الآيات بيان فضل الله العظيم على إبراهيم عليه السلام ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ ويعقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا ونوحاً هدينا مِنْ قبلُ ﴾ أي: من قبل إبراهيم عليه السلام ﴿ ومِنْ ذُرِّيَّته ﴾ أي: ومن ذرية إبراهيم؛ لأن الآيات تتحدث عنه وتبيِّن فضله ﴿ داودَ وسُليمانَ وأيُّوبَ ويوسُفَ وموسى وهارونَ وكذلكَ نجزي المحسنينَ ﴾ [٨٤] فهو كقوله سبحانه ﴿ هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان ﴾(٢) فكما أحسن إبراهيم عليه السلام في طاعةِ ربه وأخلصَ في الدعوة إلى توحيده، أحسنَ اللهُ تعالى إليه برفع درجاته وجعلِ النبوة والكتاب في أولاده وذريته، فهو أصلُ شجرة النبوة، ومنه تفرَّعت فروعُها وأغصانُها، فما من نبيٍّ أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة بعده إلا كان من ذريته عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذرِّيَّتِهِ النبوةَ والكتابَ وآتيناهُ أجرَهُ في الدنيا وإنَّه في الآخرةِ لمن الصَّالحين ﴾(٣).

﴿ وزكريا ويحيىٰ وعيسَى وإلْياسَ كلٌّ من الصَّالِحينَ ﴾ [٨٥]: أي الكاملين في الصلاح، والجدير بالذكر أن عيسى من ذرية إبراهيم من جهة أمه؛ لأنَّ الله تعالى خلقه من أم بدون أب.

---

(١) المجادلة: الآية ١١.

(٢) الرحمٰن: الآية ٦.

(٣) العنكبوت: الآية ٢٧.

﴿ وإسماعيلَ واليَسَعَ ويونُسَ ولوطاً وكلاًّ فَضَّلْنَا على العَالَمينَ ﴾ [٨٦] أي: فضَّل الله هؤلاء الأنبياء على غيرهم من العالمين.

وهؤلاء المذكورون في هذه الآيات ليسوا كل الأنبياء، فالأنبياء كثيرون وقد أشار سبحانه إليهم على وجه العموم بقوله الكريم: ﴿ وَمِنْ آبائهم وذُرِّيَّاتِهم وإخوانِهِم واجْتَبَيْنَاهُم ﴾ أي: اخترنا للنبوة من آباء الذين سَبَقَ ذكرُهم ومن أبنائهم وإخوانهم ﴿ وَهَدَيْنَاهُم إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم ﴾ [٨٧].

تلك هي شجرةُ النبوةِ المباركة المتفرِّعةِ عن إبراهيمَ عليه السلام، والممتدةِ امتدادَ الأجيالِ البشريّةِ المتعاقبةِ، تحمل إليها رسالةَ الله تعالى.

﴿ ذلكَ هُدَى اللَّهِ يهدي بهِ مَنْ يشاءُ من عبادِهِ ﴾ فالله سبحانه هو المتفضل بالهداية وليس لأحد سابقةُ استحقاق عليه جل جلاله.

﴿ ولو أشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ [٨٨] أي: لو أشرك هؤلاء الأنبياء لبَطَل وذهب عنهم كل ما أسلفوه من الأعمال الصالحة، فلا ينبغي لأحدٍ أن يغترَّ بعمله ويَعْجَبَ بنفسه، فالفضلُ للّه تعالى بدءاً وختاماً. وإذا كان هذا حال الأنبياء عليهم السلام فما بالك بحال غيرهم من الناس؟!

نسأل الله العليَّ القديرَ أن يُثَبِّتَنا على صراطه المستقيم.

التوكيل بالرسالة

﴿ أولئكَ الَّذينَ آتيناهُمُ الكتابَ ﴾ الذي أنزله الله تعالى كالتوراة والإنجيل والقرآن، فالمراد جنس الكتاب ﴿ والحُكْمَ ﴾ أي: وآتيناهم الحِكمة، وهي حسن فهم الكتاب والعمل به، ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ وهي الوحي الذي أنزله الله تعالى عليهم.

﴿ فإن يكفُرْ بِها هَؤلَاء ﴾ أي: فإن يكفر بهذه الثلاثة، الكتاب والحكم والنبوة، هؤلاء المعارضون لدعوة الرسول ﷺ من أهل مكة ﴿ فقد وَكَّلنَا بها قوماً ليسُوا بها بكافرينَ ﴾ [٨٩] وهم كل من آمن برسالة خاتم الأنبياء نبينا عليه الصلاة والسلام، من الصحابة والتابعين لهم إلى يوم الدين، فالأمة المسلمة هي الأمة

الموكَّلةُ بحمل الرسالة وأداء الأمانة، بعد أن ختم الله النبوة والرسالة بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

ومعنى توكيلهم بها أنهم وُفِّقوا للإيمان بها والقيامِ بحقوقها، كما يُوَكَّلُ الرجل بالشيء، ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه(١).

فالأنبياء آتَاهم الله الرسالة بما أنزل عليهم من الوحي وكلَّفهم بتبليغها، بينما الأمة المسلمة وُكِّلت بحفظ الرسالة والقيام عليها ونشرها بعد أن خُتمت النبوة.

ففي الآية بِشَارةٌ كبيرة للنبي ﷺ، وهو في مكة المكرمة، أن الله عز وجل سيظهر دينَه ويعزُّ رسالتَه ويمكِّن له في الأرض، وفيها أيضاً تنويه بفضل الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار الذين وكَّلهم الله تعالى على رسالته، وجعلهم الحَمَلَةَ والحَفَظَةَ لأمانته، وتنويهٌ أيضاً بفضل الأمة الإسلامية، وبيانِ مسؤوليتها الكبيرة في حمل رسالة الإسلام وحفظها ونشرها بين الناس.

كما تدل الآية على كمال الشريعة الإسلامية، فكتابها القرآن الكريم الذي تعهّد الله تعالى بحفظه، وحُكمها سنَّة النبي ﷺ المبيِّنة لأحكام الكتاب الكريم، ونبوَّتُها خاتمة النبوات، فَبِهِ عليه الصلاة والسلام اكتملت شجرة النبوة وخُتِمت كما قال الله تعالى: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين وكانَ الله بكل شيء عليماً﴾(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثلُ الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بنياناً فأحسنَه وأجمله إلا موضعَ لَبِنَةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعل الناس يطوفونَ به ويَعجبون له، ويقولون هلاَّ وضعت هذه اللَّبِنَة، فأنا اللَّبِنَة، وأنا خاتمُ النبيين»(٣).

وبهذا يظهر كذب الدجالين من مُدَّعي النبوة بعده عليه الصلاة والسلام، الذين سيأتي ردُّ آيات السورة عليهم والإشارة إلى بعضهم إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير النسفي ٢/٢٤١.
(٢) الأحزاب: الآية ٤٠.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

فهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأفضلهم جمع الله تعالى فيه كل فضائلهم ومحاسنهم بقوله تعالى مخاطباً له عليه الصلاة والسلام: ﴿ أولئكَ الذينَ هَدَى الله ﴾ أي: أولئك الأنبياء الذين سبق ذكرهم الذين هداهم الله تعالى بالوحي الذي أنزله عليهم ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أي: لا تَقْتَدِ إلا بهم، ولهذا قدَّم المفعول ليفيد الحصرَ والتخصيص، وهُداهم هو إيمانهم بالله تعالى وحده واستسلامهم لأمره ومشيئته، وما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة الكريمة.

ثم بعد أن بيَّن الله تعالى فضل النبي ﷺ وكمالَ دعوته ورسالته وصلتَها برسالات الأنبياء قبله، أمره تعالى أن يتوجَّه إلى أهل مكة بالخطاب ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُم عَلَيْه أجْراً ﴾ أي: إنَّ دعوتي منزهةٌ عن كل الأغراض الدنيوية والمنافع المادية، فلا أطلب أي أجرٍ عليها، كما هو حال الأنبياء عليهم السلام الذين أمرت بالاقتداء بهم.

﴿ إنْ هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ [٩٠] أي: ما هذا التبليغ الذي كُلِّفت به إلا تذكيراً وموعظةً للعالمين، وهذا يدل على عموم رسالةِ الإسلام، فهي رسالةٌ كاملةٌ وعامة ومنزَّهة عن كل الأغراض المادية، فعلى حملة الرسالة ودعاتها أن يعرفوا طبيعة هذه الرسالة، ليرتفعوا إلى مستواها، وينزِّهوا أنفسهم ودعوتهم عن أغراض الدنيا ومتاعها الرخيص.

الرد على منكري النبوة

ثم شرعت الآيات ترد على المخالفين، وبدأت بالرد على منكري النبوة بمناسبة الحديث على النبوة والأنبياء، قال تعالى: ﴿ وما قَدَروا اللهَ حق قدره إذ قالوا ما أنْزلَ الله على بشرٍ مِنْ شَيء ﴾ أي: ما عرفوا اللهَ حق معرفته عندما أنكروا الوحيَ والنبوةَ وبعثةَ الأنبياء والمرسلين، فإنكارهم نابع من جهلهم بالله تعالى وصفاتِه الكاملة، فهو سبحانه الخالق العليم والحكيم الرحيم، فلا يعقل أن يخلق الخلق ويتركهم بدون هداية، وهو سبحانه يعلم شدةَ حاجتهم إليها، فإذا لم يكلفهم بحمل رسالة، ولم ينزِّل عليهم وحياً، ولا نبوة، فلماذا خلقهم؟! ليتظالموا ويتخاصموا ويقْتَتِلوا، ثم يموتون وينتهي الأمر، فما أجهل أولئك الذين أنكروا وحي الله

ورسالاتِهِ، وجحدوا نبوة أنبيائه! ما أجهلهم بصفات الله تعالى وكمالاته.

ويلتحق بهؤلاء أصحاب القول بالعبقريات، الذين سيطرت على عقولهم ومشاعرهم المحسوسات والماديات حتى أنكروا ظاهرةَ الوحي والنبوة، فوصفوا الأنبياء بصفة العبقرية والنبوغ، ورأوا أن ما أتوا به نابع من نبوغهم وعبقريتهم لا منزَّلاً عليهم من الله تعالى.

لكن هؤلاء أُمر ﷺ أن يقول لهم على سبيل التحدي ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس ﴾ فإنَّ إنزال التوراة على موسى عليه السلام من الأمور الذائعة المعروفة حتى عند العرب، ولهذا حكى الله عنهم قولهم الذي سيأتي معنا في آخر السورة ﴿ أو تقولوا لو أنَّا أُنزل علينا الكتاب لكنَّا أهدى منهم ﴾.

﴿ تجعلونه قراطيسَ تُبْدونها وتُخْفون كثيراً ﴾ أي: تكتبونه في أوراق تظهرون بعضها وتخفون كثيراً منها، والخطاب لليهود الذين بدَّلوا وغيَّروا في التوراة وأخفوا بعض ما فيها، وهذا ما جعل بعض المفسرين يرى أنَّ هذه الآية مدنية.

لكن يمكن لنا أن نقول: جاء الخطاب في الآية لليهود على سبيل الإخبار عما سيحدث في المستقبل، فقد أخبر القرآن الكريم عن كثير من الوقائع والحوادث قبل حدوثها، من ذلك قوله تعالى في سورة المزمل، وهي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ في مكة: ﴿ علم أن سيكونُ منكم مرضىٰ وآخرونَ يضربونَ في الأرض يبتغونَ من فضل الله وآخرونَ يقاتلونَ في سبيل الله ﴾ ولم يكن حينئذٍ في مكة قتال.

والجدير بالذكر أن هذه الآية قد قُرِئت أيضاً بصيغة الغيبة ﴿ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ﴾[(١)].

ثم عادت الآية تخاطب المشركين بقوله تعالى: ﴿ وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ أي: ومَنْ أنزل القرآن الذي فيه علوم لا تعلمونها ولا علمها آباؤكم.

ولما كانوا جاحدين معاندين أُمِـر ﷺ أن يتولى الإجابة عنهم على سبيل

---

(١) انظر: مجموعة التفاسير ٢/٤٤٤.

التقرير للحقيقة الثابتة ﴿ قُل الله ﴾ أي الله سبحانه أنزله ﴿ ثم ذَرْهُم في خوضهم يلعبون ﴾ [٩١] أي: ثم بعد تقرير الحقيقة لا تأبه بهم، ولا تهتم بعنادهم وإعراضهم، واتركهم في باطلهم يلعبون.

وقد تضمَّن قوله تعالى: ﴿ وَعُلِّمتم ما لم تَعلموا أنتم وَلَا آباؤكُم ﴾ ردًّا علمياً ومنطقياً قاطعاً على منكري ظاهرة الوحي، ففي القرآن الكريم علوم ما كان أحد من البشر يعلمها، فما كان يعلمها النبي عليه الصلاة والسلام ولا أحدٌ من قومه، بل لقد كشف التقدم العلمي في العصر الحاضر أنه يوجد في القرآن الكريم حقائق علمية كبيرة، ما عرفها أحدٌ من البشر إلا في العصور المتأخرة، فلو أن منكري النبوة والوحي الذين لم يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم، ولم يدركوا تميُّزه على غيره من الكلام، لو أنهم تدبروا آياته وعرفوا بعض ما فيه من العلوم، لما وَسِعَهم إلا التسليم بأنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه تنزيل العزيز الحكيم.

أم القـــرى

فالقرآن الكريم بما فيه من إعجاز أكبر رد على منكري الوحي والنبوة؛ ولهذا التفتت الآيات الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم في سياق الرد على منكري الوحي والنبوة.

قال تعالى: ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ ﴾ فهو كتاب منزَّل بواسطة الوحي على النبي ﷺ، كثير الفوائد عظيم المنافع ﴿ مصدِّقُ الذي بين يديه ﴾ من الكتبِ المنزلة قبلَه كالتوراة والإنجيل.

﴿ وَلِتُنْذِرَ أمَّ القرى ومن حولَها ﴾ أي: وأنزل الله تعالى القرآن الكريم عليك يا محمد ـ ﷺ ـ لتنذر به أهل أم القرى ومن حولها.

وأمُّ القرى هي مكة المكرمة البلد الحرام، التي حرَّمها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يومَ خلقَ السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنَّه لم يحل القتال فيه

لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنَفَّر صيده، ولا يُلتقط لقطته إلا من عرّفها، ولا يختلى خلاه»[1].

فهي أفضل البلاد وأعظمها، فيها الكعبة المشرفة بيت الله الحرام، قبلة المسلمين، التي جعلها الله تعالى مثابةً للناس وأمناً بقوله الكريم ﴿ جعل الله الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس والشهرَ الحرام ﴾ الآية[2].

وهي سُرَّة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها تقع في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية[3].

فقوله سبحانه ﴿ ومن حولها ﴾ يشير إلى هذه الحقيقة العلمية الهامة التي اكتُشفت مؤخراً، فالأرض اليابسة كلها تقع حولَ مكة المكرمة، وهي مركزُها، وفي هذا تأكيدٌ لعموم رسالة النبي ﷺ، وردٌ لمزاعم القائلين بأن رسالته عليه الصلاة والسلام هي للعرب فقط؛ لأنَّ بلاد العرب هي البلاد الواقعة حول مكة المكرمة، والحمد للّه الذي رد مزاعمهم، وهدى الإنسان إلى هذه الحقيقة العلمية التي ذُكرت في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة، فمكة المكرمة هي أم القرى حقيقةً وشرعاً.

﴿ والذين يؤمنونَ بالآخرةِ يؤمنون به ﴾ فالإيمان باليوم الآخر يستلزم الإيمان بالوحي والنبوة، فهما أمران متلازمان لا يمكن الفصل بينهما، فكل من يؤمن بيوم القيامة لا بد أن يؤمن بالقرآن الكريم، ويدفعه إيمانُه بيوم القيامة والقرآن الكريم إلى تطبيق أحكامه، وأهمها إقامة الصلاة والمحافظة عليها ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ [٩٢] فالصلاة عَلَم الإيمان وعمادُ الدين، ومن حافظ عليها وأقامها على وجهها الصحيح المشروع لا بد أن يحرص على غيرها من أحكام القرآن وشريعته.

---

(١) متفق عليه.

(٢) المائدة: الآية ٩٧.

(٣) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، الإسقاط المكي العام، للدكتور حسين كمال الدين أحمد. ومما جاء فيها: وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبعة على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة أي أن مكة تعتبر مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية (انظر الشكل رقم ٨). ٦/٢٤٢.

الردُّ على مُدَّعي النبوة

وكما ردَّت الآيات الكريمة على منكري ظاهرة الوحي والنبوة، ردَّت أيضاً بالمقابل على الدجالين الكذابين أدعياء النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللذين ادعيا النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، وكل من أتىٰ بعدهما مِن الدجالين ومن سيأتي إلى قيام الساعة.

وقد ظهر في العصور المتأخرة بعض الكذابين الدجالين، منهم حسين علي المازندراني[1] الذي لقَّب نفسه بالبهاء، وادَّعى النبوة ونسخ القرآن الكريم، وتوحيد الملل والنحل.

ومنهم غلام أحمد القادياني[2] الذي ادَّعى النبوة أيضاً، وزعم أن نبوته تبع لنبوة النبي ﷺ كهارون مع موسى عليهما السلام.

قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ كالذين أنكروا الوحي والنبوة وقالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ كما مر معنا.

﴿ أو قال أوحيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ ﴾ أي: ادَّعى النبوةَ كاذباً، وأنَّ الله تعالى أوحىٰ إليه، والحقيقة أنه كذاب، وأن الله لم يوح إليه شيئاً.

﴿ ومن قال سأُنزل مثلَ ما أنزل الله ﴾ أي: ومن ادّعى أنه سيعارض وحي الله تعالى بما يفتريه من القول، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتُنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[3].

فلا أظلم من هؤلاء المكذبين لوحي الله تعالى، والدجالين المدَّعين للنبوة كذباً، والمدَّعين القدرة على معارضة وحي الله تعالى.

ولا ينفع مع أمثال هؤلاء دليل ولا برهان، ولا يناسبهم إلا التهديد والوعيد بأشد أنواع العقاب، فانظر إليهم عند نزول الموت بهم ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في

---

(١) ولد في مازندران في إيران وقيل في طهران عام ١٨١٧ م، وتوفي في عكا عام ١٨٩٠ م.
(٢) ولد في قاديان من قرى البنجاب في الهند عام ١٨٣٩ م، ومات فيها عام ١٩٠٨ م.
(٣) الأنفال: الآية ٣١.

غَمَرَاتِ الموت ﴾ أي: وهم في سكراته وكرباته التي تغمرهم ﴿ والملائكةُ باسطو أيديهم ﴾ بضربهم على وجوههم وأدبارهم، كما جاء في قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذْ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارَهم وذوقوا عذابَ الحريق ﴾[1].

ويقولون لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ أي: خلِّصوا أنفسكم من العذاب، أو: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم، كأنهم يتقاضون منهم أرواحهم[2].

﴿ اليوم تُجزون عذابَ الهُونِ ﴾ أي: العذاب المشتمل على الهوان والشدة، ﴿ بما كنتم تقولونَ على اللَّه غيرَ الحق وكنتم عن آياتِه تستكبرونَ ﴾ [٩٣] أي: تعرضون عنها تكبراً بلا رَوِيَّةٍ ولا تفكير.

ويقال لهم أيضاً يوم القيامة عندما يحشرون إلى الحساب ﴿ ولقد جئتمونا فُرادَىٰ ﴾ أي: منفردين عن الأموال والأولاد والخدم والأعوان ﴿ كما خلقْناكم أولَ مرة ﴾ أي: وأنتم في حال ضعفٍ وذِلَّة مجرَّدين عن كل حولٍ وقوةٍ، كما كنتم عند خروجكم من بطون أمهاتكم، قال تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرَّةٍ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾[3].

﴿ وتركتم ما خوَّلناكم وراءَ ظهوركم ﴾ أي تركتم ما أعطيناكم في الدنيا من الأموال والمتاع.

وفي الحديث الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ، أو لَبِستَ فأبْلَيْتَ، أو تصدَّقْتَ فأبْقَيْتَ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[4].

﴿ وما نرى معكم شفعاءَكُمُ الذينَ زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ أي: شركاء للّه تعالى في استحقاق عبادتكم ﴿ لقد تَقَطَّع بينكم ﴾ أي لم يبقَ اتصالٌ بينكم وبينهم ﴿ وضلَّ عنكم ما كنْتُمْ تَزْعُمون ﴾ [٩٤] وَضَاعت أمانيكم الكاذبة فيهم.

---

(١) الأنفال: الآية ٥٠.

(٢) تفسير النسفي وتفسير البيضاوي ٢/٤٤٨.

(٣) الكهف: الآية ٤٨.

(٤) انظر الحديث في صحيح مسلم رقم ٢٩٥٩.

الردُّ على الطبيعيين

ثم ردَّت الآيات على أصحاب القول بالطبيعة، الذين ينسبون كل ظاهرة من الظواهر التي تجري في هذا الكون إلى الطبيعة، غافلين أو متغافلين عن الإحكام والإبداع والتنسيق بين كل الحوادث التي تجري حولهم، بحيث يلزمهم على وجه القطع أن يقروا بوجود خالق واحد، هو وحده سبحانه الذي يخلق ويدبر ويقدر.

﴿ إنَّ اللهَ فالقُ الحبِّ ﴾ كالحنطة والشعير والذرة ﴿ والنَّوىٰ ﴾ جمع نواة، وهي ما تكون داخل الثمرة، والفَلْق: الشَّقُّ، فهو سبحانه الذي يشقُّ كل حبةٍ ونواةٍ، فيخرج منهما النبات والشجر، يحدثُ هذا الشَّق بقدرةِ الله تعالى في باطنِ الأرض، وتحت الثَّرى، فكل حبةٍ أو نواةٍ يشقُّها الله تعالى بقدرتِه من أعلاها ومن أسفلها، يخرج من الشق الأعلى أصل كل نبات وشجر، يتجه بقدرة الله ومشيئته إلى الأعلى ويخترق رغم ضعفه ولطفه طبقات التراب والحجارة ليكون بعد ذلك الزرع والشجر، ويتجه بقدرته سبحانه أيضاً ما يخرج من الشق الثاني إلى الأسفل، فينفذ في طَيَّاتِ الأرض ليكوِّنَ الجذورَ الضاربةَ في الأعماق، فمن كل حبة ونواة يخرج الله تعالى أصلين متضادين، صاعداً ونازلاً، وهذا دليل باهر على كمال قدرته جل وعلا وتمام مشيئته النافذة في كل المخلوقات، فمن الذي يقدر أن يشق الحبةَ اليابسةَ ويخرجَ منها النبات؟ ومن الذي يستطيع أن يشقَ النَّواةَ الصُّلبةَ ويُخرجَ منها النخل والشجر؟ من غيره سبحانه وتعالى؟!

﴿ يُخرج الحيَّ من المَيِّتِ ﴾ يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر من النطفة والحبة والنواة.

﴿ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ من الحيِّ ﴾ ويخرج الحبَّ والنوى والنطف من الحيوان والنبات والشجر.

إنَّ إخراج الحي من الميت وإخراجَ الميت من الحي من الظواهر المتجددة والمبثوثة في كثير من المخلوقات، وهي تحدث أيضاً في داخل أجسامنا، ففي كل لحظة تتجدَّد ملايين الخلايا، تنقسم ثم تموت ويحيي الله غيرها، وفي كل فترة

تتخلَّق ملايين الحيْوانات المنوية داخلَ أجسامنا من الدم الذي تمده الأغذيـة المقطعة والمطبوخة والممضوغة والمهضومة.

ويلاحظ أنَّ قوله تعالى: ﴿ يخـرج الحيَّ من الميِّت ﴾ عُدل به عن صيغة اسم الفاعل إلى الفعل المضارع؛ لأنَّ تصور إخراج الحي من الميت في ذهن القارىء والسامع يتأتى بالفعل المضارع أكثر من اسم الفاعل، ولعل فيه إشارة إلى أن الحي أفضل من الميت، وأنه ينبغي الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي(١).

فكل ما يحدث في هذا الكون يحدث بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فما من حبة في طيَّات الأرض تنشق إلا بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فبقدرته تعالى انشقت لا بقوةٍ مودَعةٍ فيها، فهذه الظواهر لا تحدث من نفسها، لا بد لها من خالق عليم حكيم.

﴿ ذلكُمُ اللَّهُ ﴾ الخالقُ الحكيمُ العليمُ، فله صفات الكمال وحده ﴿ فأنَّى تُؤْفكون ﴾ [٩٥] فكيف تُصْرَفون عن عبادته وطاعته، وتنسبون الحوادثَ إلى غيره جل جلاله؟! وهو سبحانه ﴿ فالقُ الإِصْبَاحِ ﴾، ففالق الحب والنوى هو أيضاً فالقُ الإصباح الذي يشقُّ عمودَ الصبح ونورَه عن ظلمة الليل وسوادِه. ﴿ وجعلَ الليلَ سَكَناً ﴾ ليسكن فيه الخلق للراحة ﴿ والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً ﴾ أي: جعل لهما نظاماً معيناً ثابتاً يدل على قدرته وحكمته، تحسب فيه الأيام والشهور والسنون ﴿ ذلكَ تَقْديرُ العزيزِ العليمِ ﴾ [٩٦] وكل هذه الظواهر تقدير الإله الغالب الذي أحاط علماً بكل شيء.

﴿ وهو الذي جعلَ لكم النُّجومَ لِتَهتدُوا بِهَا في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ ﴾ أي: لتسترشدوا بها إلى الطرق والمسالك في البر والبحر، فهي مخلوقات مقهورةٌ لا تأثير لها في الحوادث الأرضية، فلا تجلب لأحد نفعاً ولا تدفع عنه ضرراً، ولا تستحق أن تعبد وتعظَّم ﴿ قد فصَّلْنا الآياتِ ﴾ أي: قد بيَّنا بصائر الحق التي تدلُّ على توحيدِ الخالق وكمال علمه وقدرته ﴿ لِقَومٍ يعلمونَ ﴾ [٩٧] يعلمون هذه الحقائق وينتفعون بها، ويعلمون أنها لا تتحرك إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته.

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٢٧/٧.

المستَقـرُّ والمسْتَـودَع

ثم بيَّن تعالى كمالَ قدرته وعلمه في خلق البشر من نفس واحدة فقال: ﴿ وهو الذي أنْشَأَكُم من نفسٍ واحدةٍ ﴾ فكل الناس متفرِّعون من نفسٍ واحدة على رغم ما بينهم من تفاوتٍ في الصفات والخصائص والمَلَكات والمواهب.

قال تعالى ﴿ يا أيها الناس اتَّقوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَقَ مِنها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتَّقُوا اللهَ الذي تساءَلونَ بهِ والأرحامَ إنَّ اللهَ كانَ عليكم رقيباً ﴾(١).

وظلَّت موروثات الناس تنتقل بقدرةِ الله تعالى من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات حتى الوقت المحدّد لبروزهم وظهورهم إلى الحياة ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فالإنسان قبل أن يكون مجسماً بأعضائه وصفاته كان صيغة كروموزوميّة وموروثية معيّنة، فهو ست وأربعون كروموزوماً تحتـوي على عدد كبيـر من الموروثـات ـ الجينـات ـ تتوزع عليهـا بصيغة تختلف من إنسـان إلى إنسان آخـر، وهذه الكروموزومات والموروثات وجدت كلها في آدم عليه السلام، ثم أخذت تتوزع في ذريته.

وتصوُّر المسألة بسيط، إن قرص الهاتف يحتوي على عشرة أرقام فقط نستطيع بإدارتها بترتيب مختلف أن نكلم من نشاء في أرجاء المعمورة، فأرقام هواتف العالم كلّها موجودة في هذا القرص(٢).

فكل إنسان يحمل في خلاياه الجنسية موروثات كل من يتفرع عنه من ذريته، والله سبحانه بكامل علمه ومشيئته وقدرته أحاط بها وهي تنتقل من مستقرها في الأصلاب إلى مستودعها في الأرحام.

ومن المقرَّر الآن في علوم تكوين الجنين أن الخلايا الجنسية الابتدائية تُشتق

---

(١) النساء: الآية ١.

(٢) القرار المكين ٢٥٨.

من جدار الحويصل المحي، ثم تهاجر وتنتقل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكون في ظهر المخلوق الجديد ثم تتكاثر فيها[1].

فكل إنسان تنقَّل من أصلاب آبائه إلى أرحام أمهاته من لدن آدم عليه السلام حتى الوقت المحدد لبروزه إلى الحياة، إنها رحلة طويلة وطويلة جداً، ولكنها مقدَّرة ومعلومة في كل مراحلها وأطوارها وحركاتها؛ إنها رحلة مبرمجة بدقة من قبل الله العليم الحكيم، فماذا يقول الطبيعيون وهم يواجهون هذه الحقائق العلمية الملزمة لكل إنسان عاقل بأن يؤمن بوجود خالق واحد عليم حكيم؟

﴿ قد فصَّلنا الآيات ﴾ المبيِّنة لمراحل خلق البشر بدقةٍ علمية، وقد برزت في العصر الحاضر على الخصوص بسبب التقدم العلمي الكبير الذي حققه الإنسان في هذا المجال، وكشفت عن المدى الواسع الكبير للإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

﴿ لقومٍ يفْقَهُونَ ﴾ [٩٨]: أي يفهمون معاني هذه الآيات، والفقه: الفهم واستعمال الفطنة وتدقيق النظر.

الحَبُّ المتراكب

وتنقلنا الآيات من تكوين الإنسان ورحلته الطويلة في الأصلاب والأرحام إلى تكون النبات بقدرة الله تبارك وتعالى العليم الحكيم: ﴿ وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ من السَّماءِ ماءً ﴾ فهو سبحانه وحده الذي أنزل ماء المطر من السحاب الذي في جهة السماء.

﴿ فأَخْرَجنا به نَبَاتَ كلِّ شَيءٍ ﴾ أي: أخرج الله تعالى بماء المطر كل ما ينبت من الأرض، وهي ظاهرة تدل على عظمة الله تعالى ولهذا جاء التعبير عنها بنون العظمة، فالمُخرج الحقيقيُّ للنباتِ هو الله تعالى، والماء سببٌ، وكثيراً ما ينزل الماء ولا يخرج النبات؛ لأنَّ مشيئته تعالى لم تتعلق بخروج النبات.

ثم فصَّلت الآيةُ الكريمةُ بعضَ أطوارِ خروج بعضِ النبات ﴿ فَأَخْرَجْنَا منهُ

---

(١) القرار المكين ١٥٥.

خَضِرَاً ﴾ أي: فأخرجنا من أصله الذي شقَّه الله تعالى في الأرض خضراً، أو نخرج من الماء الذي لا لون له خضراً، والخَضِر بمعنى الأخضر، وأكثر ما يستعمل فيما تكون خضرته خلقية[1].

ومن المعلوم المشاهد أن كل نبات يكون لونه أخضر عند خروجه من سطح الأرض سواء كان زرعاً أو شجراً أو كلأً، وهو سبب اخضرار الأرض بعد نزول المطر بتقدير الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿ ألم تَرَ أنَّ اللهَ أَنْزَلَ من السَّمَاءِ مَاءً فتصبِحُ الأرْضُ مخضرَّةً إنَّ اللهَ لطيفٌ خبير ﴾[2].

ثم ﴿ نُخْرِجُ منهُ حَبَّاً مُتَراكِباً ﴾ أي: ثم نخرج من هذا النبات اللطيف الأخضر الزرع الذي نخرج منه حباً متراكباً بعضه فوق بعض، وكلمة ﴿ متراكباً ﴾ لم تأت هكذا اتفاقاً، وإنما تشير إلى مظهر من مظاهر قدرته تعالى وإبداعه في تركيب الحب داخل السنبلة تركيباً معجزاً، فلو أخرجنا حبات قمح من داخل سنبلتها، فلا يستطيع أحد أن يعيد تركيبها كما كانت، وإذا كان تركيبها معجزاً فما بالك بأطوار خلقها منذ أن كانت حبة واحدة في ظلمات الأرض، فاعرف أيها الإنسان قدرة الله تعالى وعظمته وحكمته وعلمه، واعرف فضله عليك وإحسانه إليك، واعرف أيضاً عجزك وافتقارك إليه سبحانه.

ثم تنقلنا الآيةُ من الحبِّ المتراكِبِ في الزرع إلى ثمرِ الشجر ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ أي: ويخرج من طلع النخل الذي أخرجناه من الخضر قنوان دانية.

والطلع: أكمام النخل التي يطلع منها الثمر، يطلع من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود[3].

وقنوان: جمع قنو بمعنى العذق، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب[4].

---

(١) روح المعاني ٧/٢٣٨.
(٢) الحج: الآية ٦٣.
(٣) تفسير أبي السعود ٢/١٦٦.
(٤) روح المعاني ٧/٢٣٨.

وقوله ﴿ قِنْوانٌ دَانِيَةٌ ﴾ أي تميل بسبب ثقلها وكثرة ثمرها إلى الأرض فيسهل تناولها.

﴿ وجنَّاتٍ من أعنابٍ ﴾ أي: ونخرج من الخَضِر جنَّاتٍ من أعناب، والعنب والتمر من أشرف الثمار وأنفعها للإنسان، فهما قوت وفاكهة.

ويخرج سبحانه أيضاً ﴿ والزيتونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ فبعضه مشتبه وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالَّة على حكمة مبدعها وقدرة صانعها، كما قال تعالى: ﴿ وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسقى بماءٍ واحد ونفضِّل بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلون ﴾(١).

فلو لم يكن لها فاعلٌ مختار، وكان وجودُها بسبب طبيعتها، لكانت على نسق واحد وشكل واحد، وحتى تعرفوا عظمة خالقها ومبدعها ﴿ انظُروا إلى ثمرِهِ إذا أثمرَ وَيَنْعِهِ ﴾ أي: انظروا إليه عند أول ظهور ثمره كيف يكون صغيراً ضئيلاً، ثم انظروا إليه مرةً ثانية عند نضجه وقطافه كيف يصبح كبيراً ذا نفع عظيم ولذة كاملة، فما الذي طوَّره وغيَّره؟ والحادثات لا بد لها من محدث والمتغيِّرات لا بد لها من مغيِّر.

﴿ إنَّ في ذَلِكُم لآيَاتٍ لِقَومٍ يؤمِنُونَ ﴾ [٩٩] أي: إنكم تجدون في نظركم إلى النبات وتأملكم في مراحل تكوينه وأطواره دلائلَ كثيرة وعظيمة تجعلكم تؤمنونَ بوجود الخالق العظيم سبحانه، وهذا يدل على أن من ينسب هذه الظواهر إلى الطبيعة لا يكون من المؤمنين.

الرد على القائلين بصفة الولادة والولد للّه تعالى

وهي من أقبح الأكاذيب والافتراءات على الله تعالى الواحد الأحد المنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد: ﴿ وجَعَلُوا للّهِ شُرَكَاءَ الجنَّ ﴾ أي: وجعلوا الجنَّ شركاء للّه فعبدوهم، وقالوا: إنهم بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ والحال أنه تعالى خلق الجن، فكيف يجعلون المخلوق شريكاً للخالق؟!!

(١) الرعد: الآية ٤.

﴿ وَخَرَقُوا لهُ بنينَ وَبَنَاتٍ بغيرِ علمٍ ﴾ أي اختلقوا للّه سبحانه بنين وبناتٍ جهلاً منهم بالله تعالى ووحدانيته وكماله وعظمته، قال تعالى: ﴿ وقالوا اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُم شيئاً إدّاً. تكادُ السمـواتُ يتفطرنَ منه وتنشقُ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هدّاً. أنْ دَعَوْا للرَّحْمٰنِ وَلَداً. وما ينبغي للرحمنِ أن يتخذَ وَلَداً. إنْ كُلُّ من في السمـواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عبداً. لَقَدْ أحْصَاهُم وَعَدَّهم عَدّاً. وكلُّهم آتيهِ يومَ القيامةِ فَرْداً ﴾(١).

ففي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة ردَّ سبحانه بها على من قال من مشركي العرب: الملائكة بناتُ الله، وردَّ أيضاً على النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، وعلى اليهـود الذين قـالـوا: عـزيـر ابن الله، ﴿ سُبْحَـانـه وتعـالى عَمَّـا يَصِفُون ﴾ [١٠٠] أي: تقدّس وتنزّه وتعاظَمَ عَمَّا يصفُه هَؤلاء الجهلةُ الضالُّون(٢).

﴿ بديعُ السَّمَـواتِ والأرْض ﴾ أي: هو مُبْدِعُ السماواتِ والأرض ومحدِثُهما على غير مثال سبق ﴿ أنَّى يكونُ لَهُ ولدٌ ولم تكن له صاحبة وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وَهُوَ بكل شيءٍ عَلِيمٌ ﴾ [١٠١] كيف يكون له ولد وهو خالق كل شيء، ومالك كل شيء، والمحيط علماً بكل شيء، تقدَّست ذاته، وتسامَت صفاته جل جلاله.

﴿ ذَلِكُم اللَّهُ رَبُّكم ﴾ المتَّصفُ بكل صفاتِ الكمال، والمنزّه عن كل صفاتِ الحدوث والنقصان، ومنها الولادة والولد ﴿ لَا إلهَ إلاّ هُوَ ﴾ لا معبود بحق إلا هو لأنه وحده ﴿ خَالقُ كلِ شيءٍ فاعبدوه ﴾ وحده ﴿ وَهُوَ على كل شيءٍ وكيلٌ ﴾ [١٠٢] حفيظ ورقيب.

الإدراك والرؤية

وكيف يكون له جل جلاله صاحبةٌ وولد وشريك وهو: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ ﴾ أي: لا تحيط به الأبصار، فالإدراك: الإحاطة بكُنْه الشيء وحقيقته، والأبصار: جمع بصر، حاسة النظر، وهي مخلوقة محدودة، ولا يحيط المخلوق الضعيف المحدود بالخالق جل وعلا.

---

(١) مريم: الآيات ٨٨ ـ ٩٥. انظر التوحيد والتنزيه في سورة مريم.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٠٤.

وقد استدل بعض الفرق الضالة كالمعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يُرى، وليس في الآية نفيٌ لرؤيته سبحانه، فرؤيته تعالى ثابتة للمؤمنين يوم القيامة بصريح قوله تعالى: ﴿ وُجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ. إلى ربِّها ناظرة ﴾[١] وبالأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضارُّون[٢] في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تُضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذا»[٣].

وعن صُهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنةَ يقول الله عز وجل: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدْخلنا الجنَّةَ وتنجِّنا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿ للَّذينَ أَحْسَنوا الحُسنىٰ وزيادةٌ ﴾»[٤].

ومعنى قوله «فيُكشف الحجاب» إزالةُ الموانع القائمة فينا والتي تمنعنا من رؤيته سبحانه في الدنيا، فالحجاب النقص البشري الدنيوي، يزيله الله سبحانه عن أهل الجنة تكميلاً لهم وتشريفاً،ليتمكّنوا من رؤيته سبحانه رؤية تليق بذاته المقدسة، ويبقى الكافرون محرومين من رؤيته سبحانه محجوبين عنه جل جلاله، كما قال تعالى: ﴿ كلا إنهم عن ربِّهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾[٥].

فالأبصار ترى الله سبحانه رؤيةً تليق بذاته بلا تكييف، ولكنها لا تحيط به كما أنَّ القلوب تعرفه ولا تحيط به، قال سعيد بن المسيب رحمه الله: ﴿ لا تدْرِكُه الأبصارُ ﴾ لا تحيط به الأبصار، وقال ابن عباس رضي الله عنه: كلَّت أبصارُ المخلوقين عن الإحاطة به[٦].

---

(١) القيامة: الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) أي هل يحصل ضرر أو مانع؟
(٣) انظر الحديث بطوله في الصحيحين البخاري ومسلم.
(٤) رواه مسلم والترمذي والنسائي.
(٥) المطففين: الآية ١٥.
(٦) تفسير الخازن ٢/٤٥٨.

فلا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم الإحاطة بالعلم عدم العلم، قال تعالى ﴿ولا يحيطون بهِ علماً﴾[(١)] ومرَّ معنا في أول السورة الحديث الذي في صحيح مسلم: «لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فلا يلزم منه عدم الثناء[(٢)].

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصارَ﴾ أي: يحيطُ بها ويعلمها ويراها، فهو خالقها سبحانه ﴿ألا يعلمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيف الخبير﴾[(٣)].

والمراد من الأبصار هنا: النورُ الذي تُدرك به المُبْصَرات، ولعل هذا هو السرُّ في الإظهار في مقام الإضمار[(٤)] إذ الأصل أن يقول: (لا تدركه الأبصار وهو يدركها) فدلَّ إظهارها مرة ثانية على أن بينهما تغايراً، فالأولى حواسُّ البصر، والثانية: النور الذي تدرك به المبصرات.

﴿وهو اللطيفُ﴾ الذي لا تحيطُ به الأبصار ﴿الخبيرُ﴾ [١٠٣] الذي يحيط بالأبصار وبأصحابها[(٥)].

جاءت البصائر

ولما وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى هذا الحد في الإثبات والرد، إثبات صفات الكمال والجلال للّه تعالى، والردِّ على أصحاب النِّحَلِ والملل الفاسدة الضالَّة بالحجج البالغة، والبراهين القاطعة، عقَّبت على ذلك بقوله جل جلاله على وجه التقرير والتحقيق: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والبصائر للقلب كالأبصار للعين؛ لأنها تجعل القلب يبصر الحقيقة، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات ويظهرها؛ ولهذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فمن أبصرَ الحقَّ وآمنَ به فلنفسه أبصر؛ لأنَّ نفعَه لها،

---

(١) طه: الآية ١١٠.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٠٥.

(٣) الملك: الآية ١٤.

(٤) روح المعاني ٧/٢٤٨.

(٥) انظر نظم الدرر ٧/٢٢٠.

والله سبحانه غنيٌّ عن إيمانه ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أي: ومن أعرضَ عن الحق وضلَّ عنه فإنَّ وبال إعراضه وضلاله على نفسه، فهو كقوله تعالى ﴿ مَن اهتدَى فإنَّما يهتدي لنفسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبينَ حتى نبعثَ رسُولاً ﴾[1].

﴿ وَمَا أَنَا عَليكُم بِحَفيظ ﴾ [١٠٤] أحفظُ أعمالَكم لأجازيكم عليها، إنما أنا منذر لكم والله سبحانه هو الحفيظ عليكم.

وهكذا بيَّن الله تعالى أدلةَ الإيمان وبصائر الحق بياناً شافياً كافياً، ورد شبهَ المعارضين ونقضها، وكشف العلل وفضحها، فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ ﴾ أي: وكذلك نصرِّف الآيات مثل ما تلونا عليك، وأصل التصريف نقل الشيء من حال إلى حال، والمعنى أنا نجعل الآيات تنتقلُ من معنى إلى معنى، حتى تأتي على جميع ما يحتاج إليه من المعاني والحجج والبراهين.

ولكنّ المعاندين المعارضين من المشركين ظلُّوا على عنادهم وإعراضهم، واتَّهموا النبيَّ ﷺ بتعلّم ما أتى به من أهل الكتاب ﴿ وَلِيقُولوا دَرَسْتَ ﴾ أي: وليقولَ المشركون المعاندون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وتعلّمت منهم، وهي شبهة باطلة تمسكوا بها وحكاها سبحانه عنهم في عدَّة آياتٍ منها قوله تعالى: ﴿ وَقالُوا أَسَاطِيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُملَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[2] مع أنهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام كان أميَّاً لا يعرف القراءةَ والكتابةَ، فأميَّتُه عليه الصلاة والسلام من أدلة صدقه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِه مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّه بِيَمينكَ إذاً لاَرْتَابَ المُبْطِلونَ ﴾[3].

والعجيب أنه لا يزال حتى الآن كثيرٌ من أعداء الإسلام كبعض المستشرقين يرددون أمثال هذه الشبهة الباطلة التي كان يرددها من قبل المشركون المعاندون، وقد ردَّها سبحانه، وبيَّن بطلانها وزيفها في عِدّة آياتٍ كريمة، منها قوله تعالى:

---

(١) الإسراء: الآية ١٥.

(٢) الفرقان: الآية ٥.

(٣) العنكبوت: الآية ٤٨.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يقولونَ إِنَّما يُعلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذي يُلْحِدونَ إليه أَعْجَميٌّ وَهَذا لِسَانٌ عَربيٌّ مُبينٌ ﴾[1].

فلقد أعجز القرآن الكريم فصحاء العرب، فكيف يأتي به النبي ﷺ من أهل الكتاب ذوي اللسان الأعجمي؟! ولو تأمَّل المستشرقون معاني القرآن الكريم على وجه الإنصاف لما قالوا مثل هذه المقولة الكاذبة، فلقد صحَّح القرآن الكريم ما كان عليه أهل الكتاب من انحرافات في عقائدهم وعباداتهم، كما كشف كثيراً من الحقائق التي أخفوها في كتبهم، فلا يعقل أن يكون القرآن منقولاً عنهم.

﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَومٍ يعلمونَ ﴾ [١٠٥] أي: وَلِنُبَيِّنَهُ للفريق الآخر الذي أبصر الحق وآمن به، حتى يكون إيمانه مبنياً على بصيرة وبرهان.

إن أمثال هذه الشبهات الواهية الضعيفة لا تؤثِّر على الحق في مسيرته ولا تعوقه؛ ولهذا أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يتمسَّك بوحي الله تعالى، ويعرضَ عن أصحاب هذه الشبهات الضعيفة الواهية ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحيَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ ﴾ [١٠٦] فلا تبال بهم، فالله سبحانه قادرٌ على هدايتهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَليهِمْ حَفِيظاً ﴾ تحفظ أعمالهم لتجازيهم عليها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكيلٍ ﴾ [١٠٧].

من أدب المناظرة

والْتَفَتَتِ الآيات بعد ذلك إلى المؤمنين لتبيِّن لهم أدباً من أهم آداب المناظرة والمجادلة مع المخالفين لهم ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: نزِّهوا أنفسَكم عن سبِّ المشركين وشتمِهم وسبِّ آلهتهم، عليكم فقط أن تبيِّنوا لهم الأدلةَ والبراهينَ بأسلوبٍ لطيف وموضوعي بعيدٍ عن السباب والشتائم، فأنتم على حق ومعكم بصائره الواضحة وحججه البالغة، ولا حاجة بكم أن تلجؤوا إلى السب والشتم، فإنه يؤدِّي إلى تنفيرهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ ربِّك

(١) النحل: الآية ١٠٣.

بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي أحسنُ إنَّ ربَّك هو أعلمُ بِمَن ضَلَّ عن سبيلِهِ وَهُوَ أعلمُ بالمهتدينَ ﴾[1].

ويؤدي السبُّ والشتمُ أيضاً إلى مفسدةٍ كبيرة بيَّنها سبحانه بقوله: ﴿ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً ﴾ عُدواناً وتجاوزاً من الحق إلى الباطل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي وهم على جهالةٍ بالله تعالى، وما يجب له جل جلاله من التعظيم.

وهذا يؤكِّد القاعدة الشرعية التي مرَّت معنا وهي: «دفع المفسدةِ مقدَّمٌ على جلب المصلحة»، إنْ كان يوجدُ مصلحةٌ في سبِّهم وشتمهم.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «إنَّ من أكبرِ الكبائرِ أن يلعنَ الرجل والديه، قيل: وكيف يلعنُ الرجل والديه؟! قال: يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّه فيسبُّ أمه»[2].

﴿ كَذَلِكَ زَيَنَّا لكلِ أمَّةٍ عَمَلَهُم ﴾ أي كما زينَّا لهؤلاء حبَّ أصنامهم، والمحاماة عنها، والانتصار لها، زيَّنا للأمم السابقة عَمَلَهم الذي كانوا عليه بسبب سوءِ كسبهم واختيارهم ﴿ ثمَّ إلى ربِّهم مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [١٠٨] ليحاسبهم عليه ويجازيهم.

ثم حذَّرت الآيات المؤمنين من الانخداع ببعض الأساليب الملتوية التي يلجأ إليها الكفار في أثناء مناظرة المؤمنين لهم ليستروا فشلهم وعنادهم ﴿ وَأَقْسَمُوا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ إنهم يكثرون الحَلْف بالله تعالى، ويبذلون جهدهم في تأكيدها، فلا تغتروا بها فهي أَيْمَانٌ كاذبة.

﴿ قُلْ إنَّما الآياتُ عندَ اللَّه ﴾ فالمعجزاتُ بيد الله تعالى وحده ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَت لا يُؤمِنون ﴾ [١٠٩] فهو سبحانه يعلمُ حقيقةَ حالهم، فلا تغتروا بأيْمانهم الكاذبة، فقلوبهم وأبصارهم تحت قهره ومشيئته سبحانه، وبقبضة قدرته، يقلبها كيف يشاء ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

---

(١) النحل: الآية ١٢٥.
(٢) متفق عليه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما جحد المشركون ما أنزل الله تعالى لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر(١).

فمجيء الآيات المقترحة لن يغيِّر مواقفَهم؛ لأنَّ قلوبَهم وأبصارَهم في قبضة قدرته سبحانه قبل مجيء الآيات وبعدها.

﴿ وَنَذَرُهُم في طُغْيَانِهِم يَعْمَهون ﴾ [١١٠] أي: نتركهم في كفرهم وضلالهم يتحيَّرون ويتردَّدون.

فإيمانهم منوط بمشيئته سبحانه لا بمجيء الآيات والمعجزات ﴿ ولو أنَّنا نَزَّلنا إليهُم الملائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيءٍ قُبُلًا ﴾ معاينة ومقابلة ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فهو كقوله سبحانه ﴿ إنَّ الذين حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك لا يؤمنونَ. ولو جاءَتْهم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوا العذابَ الأليم ﴾(٢).

﴿ ولكنَّ أكثَرَهُم يَجْهَلون ﴾ [١١١] أنَّ مشيئته سبحانه هي الغالبة النافذة.

الإعـلام المزخـرف

وقد عوَّدنا تعالى في التنزيل الحكيم أنه كلما بيَّن شدَّةَ عنادِ المشركين وإعراضهم أنزل آياتٍ تواسي النبيَّ ﷺ وتسلِّيه عما يلقى من عنادهم وإعراضهم؛ ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم ﴿ وَكَذَلكَ جَعَلْنَا لكل نبيٍّ عَدُوًّا ﴾ أي: كما ابتليناك بهؤلاء المعاندين جعلنا لكل نبيٍّ أعداءً، فلست بِدْعاً بين الأنبياء، ﴿ شياطينَ الإنْسِ والجِنِّ ﴾ أي: شياطين من الإنس وشياطين من الجن، والشيطانُ كُلُّ عاتٍ متمرِّدٍ من الجنِّ والإنْس(٣).

ويتعاونون فيما بينهم على معارضة الأنبياء عليهم السلام ﴿ يُوحي بَعْضُهم إلى بعضٍ ﴾ أي: يوسوسُ شياطينُ الجنِّ إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض ﴿ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً ﴾ الأقوال المزخرفة الخادعة.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٠٨.

(٢) يونس: الآيتان ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) تفسير الخازن ٢/٤٦٩.

﴿ ولو شَاءَ ربك مَا فَعَلُوهُ ﴾ لكنَّه سبحانه قدَّر أن تكونَ الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [١١٢] أي: اتركهم ولا تبالِ بخداعهم وأكاذيبهم، فإنَّ الله تعالى ناصرُك عليهم.

ولا يميل إلى هذا القول المزَخْرف ولا يتأثَّر به إلا من كان مثلهم في الكفر والفجور ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إليهِ أفئدةُ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخرةِ ﴾ أي: لتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بيوم القيامة؛ لأنَّ حب الدنيا أعمى قلوبهم عن بصائر الحق، فمالت إلى هذه الأقوال المزخرفة الباطلة.

وبعد أن تميلَ إلى القولِ المزَخْرَفِ الكاذِبِ، ترضى به وتطمئنُ إليه ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ ثمَّ بعد ذلك يقترفون ما فيه من إثم وفجور ﴿ وَلِيَقْتَرِفوا مَا هُم مُقْتَرِفُونَ ﴾ [١١٣] فكأنَّ كل مرحلة تؤدي إلى ما بعدها.

ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شِراك الضالِّين المضلِّين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المذوّق المزخرَف الذي يخفون في طيَّاته السُّمَّ النَّاقع، فما أكثر ما يخلطون السمَّ بالدسم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور.

وكأنِّي بالآية الكريمة قد نَزَلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديد على الناس، لقد وجَّه شياطين الإنس من أعداء الإنسان بوحيٍ من شياطين الجن كثيراً من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملؤوها بالبرامج المزخرفة المموهة، التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم.

تحكيم القرآن الكريم

فواجب المسلمين لحمايةِ أنفسِهم وأبنائِهم من تأثير وسائل الإعلام الموجَّهة إليهم، أن يحكِّموا فيها كتاب الله تعالى، الذي فصَّل اللهُ فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان ليميز بين الحق والباطل والحلال والحرام، فما وافقه قبلوه وما عارضه

ردوه، وليحذروا من تحكيم غير ما أنزل الله تعالى عليهم استجابةً لمقترحات يقترحها الكفار عليهم، كما فعل مشركو قريش عندما قالوا للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك[1].

فالاحتكام في أمر الدين إلى غير القرآن الكريم إعراضٌ عن كتاب الله تعالى، ويعد شكاً فيه، قال عز وجل يحذِّر من الوقوع في مثل هذا الأمر: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً، وَهُوَ الَّذي أَنْزَل إليكُمُ الكتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ أي: كيف أطلب حكماً غير الله تعالى الذي أنزل القرآن الكريم، مبيِّناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام، بحيث لم يبق في أمر الدين شيء من التخليط والإبهام ؟!.

﴿ والذين آتيناهُمُ الكتابَ يعلمونَ أنَّه مُنَزَّلٌ من رَبِّكَ بالحقِّ ﴾ أي: واليهود والنصارى الذين طلب المشركون تحكيمَ بعضهم يعلمون أن القرآن منزلٌ من الله تعالى بالحق ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِن الْمُمْتَرينَ ﴾ [١١٤] أي: المتردِّدين في أنهم يعلمون ذلك.

فالحكم في دين الله للقرآن الكريم لا لغيره؛ لأنَّ تمام الدين وكماله في القرآن الكريم وصدقه وعدله ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمةُ ربِّك صِدْقَاً وَعَدْلاً ﴾ فكل ما أخبر به حق لا مِرْيةَ فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عَدْل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهىٰ إلا عن مفسدة[2].

والقرآن أيضاً ثابت لا يستطيع أحدٌ أن يغيِّره أو يبدله ﴿ لا مُبَدِّل لِكَلِماتِهِ ﴾ لأنها مصونةٌ عن التغييرِ والتبديلِ ، محفوظةٌ بحِفظِ الله تعالى ﴿ وَهُوَ السميعُ ﴾ لما يقوله العباد ﴿ العَليمُ ﴾ [١١٥] بأحوالهم.

ويؤدي التأثُّر بأقوال الناس والاستجابة لمقترحاتهم إلى الضلال والبعد عن دين الله تعالى، ولهذا قال تعالى محذِّراً ومؤدِّباً: ﴿ وَإِنْ تُطِع أَكْثَرَ مَنْ في الأرض يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ ﴾ أي: إن تطع أكثر الناس يبعدوك عن دين الله تعالى، أو يبعدوك عن الطريق الذي يوصل إلى رضوانه سبحانه.

---

(١) انظر: روح المعاني ٨/٨.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٦١١/١.

ثم بيَّن تعالى سببَ ذلك فقال ﴿ إِنْ يَتَّبِعونَ إلا الظَنَّ ﴾ أي: ما يتبعون في عقائدهم إلا الظن؛ لأنهم قلَّدوا فيها آباءهم دون نظر وتدبّر ﴿ وإِنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [١١٦] أي: يكذبون.

وتدلُّ الآية على محدوديةِ الإنسان وقصوره عن معرفة الحقيقة الكاملة؛ بسبب ضعفه ومحدوديته وغلبة أهوائه عليه، وكلُّ ذلك يؤكِّد حاجته إلى وحي الله تعالى، الذي أحاط علماً بكل شيء ﴿ إنَّ ربكَ هُوَ أعلم مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدينَ ﴾ [١١٧].

الفَصْلُ الرَّابِعُ

سَفَهٌ وَضَلَال

تمهيد

انتقلت الآياتُ الكريمة في هذا الفصل من المناقشة والمجادلة حول موضوعات الإيمان الكلية الكبرى إلى بعض الموضوعات الجزئية التي كانت سائدةً بين العرب في الجاهلية، لتبيِّن بعض ما كانوا عليه من سَفَهٍ وضلال، ولتربط أيضاً بين هذه القضايا والموضوعات الجزئية وبين موضوعات الإيمان الكبرى، ولتؤكِّد أيضاً على حاجةِ الإنسان إلى شريعة الله تعالى، وإنزال الوحي، وبعثة الأنبياء عليهم السلام.

واستمرَّت الآيات الكريمة في هذا الفصل متمسكة بأسلوبها السابق الذي غلب على أكثر آيات سورة الأنعام، أسلوب المجادلة والمناظرة، ودفع الشبهات وردِّها، والكشفِ عن أساسها ومصدرها، وبيان بطلانها وفسادها.

التحليل والتحريم لله تعالى

وجَّهت الآيات الخطابَ للمؤمنين تأمرهم فيه على وجه الإباحة بالأكل من لحوم الذبائح التي تذبح على اسم الله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بآياتِـه مُؤمنينَ ﴾ [١١٨] فإن من مقتضيات الإيمان استباحة ما أحل الله تعالى واجتناب ما حرم، ومفهومه أنه لا يباح الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه العرب في الجاهلية، فكانوا يأكلون الميتات وما ذبح على النُّصُب تقرُّباً للأصنام وغيرها.

﴿ وَمَا لَكُمْ ألاَّ تَأْكُلوا مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللَّهِ عليهِ ﴾ أيْ لا يوجد سبب يمنعكم من أكلِ ما ذُبِح على اسمِ الله تعالى، إذْ كان المشركون يحرِّمون على أنفسهم بعض

ما أحلَّ الله تعالى، كما سيأتي قريباً، ﴿ وقد فصَّلَ لكم ما حَرَّم عليكم ﴾ أي بيَّن سبحانه على وجه التفصيل كل ما حرم عليكم ﴿ إلَّا ما اضْطُرِرْتُم إليهِ ﴾ أي إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم المحرَّم، كما سيأتي بيانه أيضاً.

فالحلال ما أحلَّه الله تعالى، والحرام ما حرّمَه سبحانه وحده، لا ما كان يفعله زعماء الضلال والكفر من تحليل وتحريم ﴿ وإنَّ كثيراً ليُضِلُّونَ ﴾ الناس بتحليل الحرام وتحريم الحلال ﴿ بِأَهْوَائِهِم ﴾ الفاسدة المنحرفة ﴿ بغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بما يناسب الناس وينفعهم وبما يؤذيهم ويضرهم ﴿ إنَّ ربَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين ﴾ [١١٩] المتجاوزين حدود ما شرع سبحانه لهم.

إن التحليل والتحريم من الأمور الخطيرة الهامة، لا ينبغي لأحد من الناس أن يدَّعيها لنفسه، إنَّها منوطة بالله تعالى، فهو وحده الخالق الحاكم، فله سبحانه الخلق والأمر، وعلى الناس أن يلتزموا حدود ما شَرَعَ الله تعالى لهم.

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإثمِ وباطِنَهُ ﴾ والإثمُ الظاهر: ما كان تحريمه ظاهراً ومعلوماً، وباطن الإثم: ما فيه شبهة، وقد جعل الله تعالى له في القلب علامة، وهي أن يضطرب القلب عند فعله، ولا يطمئن إليه، فقلب المؤمن لا يطمئن إلى المحرمات، قال ﷺ: «البر: حسنُ الخلق، والإثم: ما حاك في صدرك وكَرِهت أن يطلع عليه الناس»(١) ومعنى قوله « حاك » تحرَّك وتردد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل منه في القلب الشك وخوف كونه ذنباً.

ويمكن أن يكون المراد من ظاهر الإثم أفعال الجوارح، ومن باطنه أفعال القلب كالحسد والكبر والعجب والرياء.

﴿ إنَّ الذينَ يكْسِبُونَ الإثمَ ﴾ أي يتجاوزون الحدود المشروعة ويفعلون المحرمات ﴿ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [١٢٠] أي: سيحاسبهم الله تعالى ويجازيهم على ما فعلوا في الدنيا من معاصٍ وآثام.

---

(١) صحيح مسلم.

التسمية عند الذبح

ثم بيّنت الآيات تحريمَ الأكل من الذبائحِ التي لم تذبح على اسم الله تعالى، لأنَّ الذبح على غير اسمه تعالى من مظاهر الشرك، وقد حرَّم الله تعالى كل مظاهر الشرك ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ كالميتة وما ذُبح لغير الله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أي إن أكله خروج عن طاعته سبحانه، أو إن الذبح على غير اسمه تعالى لفسق وخروج عن طاعته.

فلا يدخل فيه ذبيحة المسلم التي ينسى التسمية عليها عند الذبح، لما صحَّ عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا: يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سمُّوا عليه أنتم وكلوا» قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر(١).

ثم ردَّت الآية شبهة من وحي الشياطين كانوا يتمسكون بها في الجاهلية ﴿ وإنَّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أوليائهم لِيُجَادِلوكُم ﴾ كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لكلِّ نبيٍّ عَدوّاً شَياطينَ الإنْسِ والجنِّ يوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرُفَ القولِ غُروراً ﴾.

فقد كان المشركون ينكرون تحريم أكل الميتة، ويدَّعون أنها ذبيحة الله، ويقولون للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله تعالى، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟(٢) وهذا مثال للشبه والضلالات التي كان الشياطين يوحون بها إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا المسلمين، حذَّر الله تعالى المسلمين منها فقال: ﴿ وإنْ أطعتموهُمْ إنَّكم لَمُشْرِكون ﴾ [١٢١] أي: إنْ أطعتموهم في استحلال ما حرَّم الله تعالى فقد أشركتم، فكل من أحلَّ شيئاً مما حرَّم الله، أو حرَّم شيئاً مما أحلَّ الله، فهو مشركٌ، لأنه أثبت حاكماً ـ مشرعاً ـ غيرَ الله عز وجل، ومن كان كذلك فهو مشرك(٣)، كما قال تعالى ﴿ اتَّخذوا أحبارَهُم

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/٦١٤.

(٣) تفسير الخازن ٢/٤٧٧.

ورُهْبَانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية[1]، وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي ابن حاتم رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله ما عَبَدوهم، فقال: «بلى إنهم أحلُّوا لهم الحرامَ وحرَّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم».

الإيمان حياة والكفر موت

ثم ضربت الآيات مثلاً تبيِّن فيه نعمة الإيمان وآثاره الطيبة الحميدة في قلوب المؤمنين وسلوكهم، وتقارن بينه وبين الكفر وظلماته وآثاره السيئة في نفوس أصحابه وسلوكهم، فالمؤمنون مستضيئون بأنوار الوحي الإلٓهي، بينما المشركون غارقون في ظلمات الجهل والطغيان، ووساوس الشيطان، وتقليد رؤساء الضلال والكفر ﴿ أَوَمَنْ كَان مَيْتاً فأحْيَيْنَاهُ ﴾ يعني: أوَمن كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، فالكفر موت والإيمان حياة، ولا خير في قلب لا إيمان فيه، قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا استجيبوا لِلَّهِ وللرسولِ إذا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكم واعلموا أنَّ الله يحولُ بين المرءِ وقلبِه وأنَّه إليهِ تُحشَرون ﴾[2].

وقد يكون المعنى: أوَمنْ كان ميتاً بالجهل وهوى النفس فأحييناه بالعلم ومحبة الحق.

﴿ وجعلنا لَهُ نوراً ﴾ أي: نور الحجج والآيات يتأمَّل بها في الأشياء، فيميِّز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل[3].

وقد مرَّ معنا أنه سبحانه سمى ما في السورة من أدلةٍ وبراهين بصائر ﴿ قَدْ جاءَكُمْ بصائرُ من ربِّكم ﴾ فالمؤمن على بيِّنَةٍ من ربه وبصيرةٍ، يميِّز بها بين المحقِّ والمبْطِل من الناس ﴿ يَمْشِي به في النَّاسِ ﴾ فلا ينخدع بزخرف القول مهما كانت وسائل الخداع والتزوير قوية.

وسبق أن بيَّنتُ من خلال ما تقدَّم من آيات السورة خطورة وسائل الإعلام

(١) التوبة: الآية ٣١.
(٢) الأنفال: الآية ٢٤.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/٤٧٧.

وشدة تأثيرها على الناس، وأنه لا سبيل لحماية المسلمين من خطرها إلا بالاعتصام بالقرآن الكريم، وهذه الآية تأكيد لما سبق، فالقرآن الكريم هو النور الذي يضيء للمسلم طريق حياته، يسير به بين الناس مهما كانت نحلهم ومللهم، دون أن يتأثر بزخرف أقوالهم ووسائل إعلامهم.

وتدلُّ الآية أيضاً على أنَّ المسلم ينبغي أن يكون إيجابياً مع الناس، يمشي بينهم ويعيش معهم على هدي كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، كما تدل على ضرورة التطبيق العملي لأحكام القرآن الكريم، فالمعرفة النظرية لا تكفي فلا بد للمسلم أن يمشي بالقرآن الكريم بين الناس، وقد ألزم نفسه بأحكامه عقيدة وعملاً وسلوكاً وخلقاً.

فلا يمكن للمسلم أن يسير بالقرآن بين الناس بمجرد المعرفة النظرية، فالناس لا يرون من المسلم خبيئة نفسه وما عقد عليه قلبه، الناس يرون من المسلم صدقه وأمانته وعفته واستقامته وتنزهه عن المحرمات وحرصه على الطاعات والعبادات، عندئذٍ يرون المسلم الذي يمشي بينهم بالقرآن الكريم، ويعرفون حقيقة الإسلام وجوهر الإيمان.

وبهذا يتميز المسلم الذي يمشي بين الناس بنور القرآن وهدي الإيمان عمن يتخبط في ظلماتِ الكفر ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلماتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ منها ﴾ وهي ظلماتُ الكفر والشهوات، وما أكثرها، يتراكم بعضها فوق بعض حتى تحجب صاحبها عن رؤية الحقيقة مهما كانت قريبة وواضحة، فقوله تعالى ﴿ لَيْسَ بخارجٍ منها ﴾ يدل على شدة الظلمات المحيطة به من كل جانب، فقد غلِّفت قلبَه وختمت عليه، فأنى له أن يرى طريق الهداية، ويبصرَ مَعالمَ النور، وهو مُعْرِضٌ عن هدي الله تعالى، مقبلٌ على موالاة الشياطين الذين يزيِّنون له المعاصي والفواحش بزخرف القول غروراً ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ للكافرينَ مَا كَانُوا يَعْمَلونَ ﴾ [١٢٢].

أكابر المجرمين

ورؤوسُ الضَّلال والكفر الذين يزيِّنون للناس المعاصي والآثام موجودون في كل المجتمعات، ومنشأ ضلال الناس من تقليدهم تقليداً أعمى، فتراهم يسيرون

وراءهم، وقد خدعتهم أقوالهم المزخرفة ﴿ وَكَذلك جَعَلنا في كل قريةٍ أكـابرَ مجرميها ليمكروا فيها ﴾ قدَّر الله تعالى أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء، فكمـا جعل فيهـا الأنبياء والمـرسلين ومن سار على طـريقهم من الصـالحين المصلحين، جعل بالمقابل في كل بلدٍ ومجتمع أكابر المجرمين ينشرون الفسادَ ويعارضون دعوةَ الأنبياء والمرسلين ويصدُّون الناس عنها بكل ما لديهم من وسائل المكر والخداع.

﴿ وَمَا يمكرونَ إلا بأنفسِهم وما يشعرون ﴾ [١٢٣] أي: وما يعـود وبال مكرهم وإضلالهم إلا على أنفسهم، كما قال تعالى ﴿ ولا يحيقُ المكرُ السيءُ إلا بأهله ﴾ الآية[١].

وأكابر المجرمين هؤلاء شأنهم التكبر والتجبر ومعارضة دعوة الأنبياء عليهم السلام حسداً وبغياً ﴿ وَإذا جَاءَتْهم آيةٌ ﴾ فيها بصيرةٌ من بصائر الحق وبرهانٌ قاطع يلزمهم بتصديق النبي ﷺ ﴿ قَالوا لَنْ نُؤْمِنَ حتى نُؤْتى مثلَ ما أوتيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ أي حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، وهذا يدل على شدة الكِبْر والحسد في نفوسهم، فكل واحد منهم يريد ألا يختص أحد دونه بشيء ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صُحُفاً مُنَشَّرة ﴾[٢].

وسبق أن مرَّ معنا أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد الفقراء والضعفاء عن مجلسه، وأنهم استنكروا أن يجعل الله هدايته في هؤلاء الضعفاء الفقراء فقالوا: ﴿ أهؤلاء منَّ اللهُ عليهم من بيننا ﴾، وأنه تعالى ردَّ عليهم بقوله ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾.

وهاهو سبحانه يردُّ عليهم هنا عندما رفضوا الإيمان واعترضوا على تخصيص الرسول ﷺ بالرسالة دونهم، بقوله الكريم ﴿ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ ﴾ فلا يجعل رسالتَه إلا عند من يصلح لها من خلقه وهو سبحانه العليم الحكيم.

وهذه شهادةٌ رَبَّانية رفيعةٌ بأنه عليه الصلاة والسلام خيرُ من يصلح لحمل

---

(١) فاطر: الآية ٤٣.

(٢) المدثر: الآية ٥٢.

رسالة الله تعالى وتبليغ أمانته، فهدايته جلَّ وعلا يجعلها في الشاكرين المعترفين للّه تعالى بفضله وإحسانه عليهم، أما رسالته سبحانه فشأنها أخطر وأعظم، فلا يجعلها إلا في أكمل عباده خَلْقاً وخُلُقاً؛ ولهذا جاء قوله سبحانه هنا مطلقاً عن أي قيد بوصف معين، فدلَّ على أنه ﷺ هو خيرته تعالى وصفوته من عباده على الإطلاق.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1].

ثم بيَّن سبحانه عاقبةَ هؤلاء المجرمين المتكبرين بقوله ﴿ سَيُصيبُ الذينَ أجْرموا صَغَارٌ عند الله ﴾ أي: ذِلَّةٌ دائمةٌ يوم القيامة، والجزاءُ من جنس العمل ﴿ وَعَذَابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون ﴾ [١٢٤] أي: بسببِ مكرهم وخداعِهم وصدِّهم عن سبيل الله تعالى.

من حقائق القرآن العلمية

والإسلام هو التسليم الكامل للّه تعالى، والرضا بأحكامه الشرعية والقَدَرية دون أي اعتراض، فالمسلمُ لا يبغي على أحد ولا يحسد أحداً، وذلك لأن الله تعالى يشرح صدره للإسلام وينوِّره بنور القرآن، ويحبِّب إليه الإيمان ويزيِّنه في قلبه ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أن يهديَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ أي: ييسِّره له وينشِّطه ويسهِّلهُ لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صدْرَهُ للإسلام فَهُو على نورٍ من ربه فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم مِنْ ذكرِ الله أولئكَ في ضلالٍ مبين ﴾[2].

يقال: شرح الله صدره فانشرح، أي: وسعه لقبول الإيمان والخير فتوسع، فمال إليه وقويت رغبته فيه.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الزمر: الآية ٢٢.

وبالمقابل ﴿ وَمَنْ يُرِدِ أن يُضِلَّهُ ﴾ أي: يخذله ويتركه في ضلاله ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ شديدَ الضيق فلا يصل إليه شيء من الإيمان والخير ﴿ كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماء ﴾ فإذا ما دُعي إلى الإسلام كأنه قد كُلِّف أن يصعد إلى السماء ولا يقدر على ذلك، أو ضاق صدره عن الإسلام فطلب مصعداً في السماء، أو كأنه يصعد إلى السماء بعداً عن الإسلام وتكبراً[1].

هكذا فسَّر المفسِّرون السابقون الآية الكريمة، وقد أضاف العلم الحديث معنى آخر للآية لا يتعارض مع ما تقدم، فقد كَشَفَ العلم الحديث التوازن القائم بين ضغط الغلاف الجوي على جسم الإنسان، وبين ضغط الدم على جدران العروق والشرايين التي يجري فيها، فإذا ما صعد الإنسانُ في جو السماء اختلَّ هذا التوازن، ونتجَ عنه شعورُ الإنسان بضيق في صدره، وصعوبة في التنفس، مع دوار وثقل في رأسه، ويمكن أن يؤدي الاستمرار في الصعود إلى انفجار مجاري الدم في جسده؛ ولهذا صنعوا للطيَّارين الذين يصعدون إلى طبقاتٍ عالية في الجو، ولرجال الفضاء، ملابس خاصة بهم؛ لتحفظ لهم التوازن وتحميهم من مخاطر اختلاله.

فالآية تشير إلى حقيقة علمية ما عرفها الإنسان إلا في العصر المتأخر، مما يؤكِّد أن القرآن من كلام الله تعالى العليم الحكيم.

﴿ كذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ ﴾ أي: العذاب أو الخذلان ﴿ عَلى الذينَ لا يُؤْمِنونَ ﴾ [١٢٥].

ومع أن الهدايةَ والضلالَ بيده سبحانه وبمشيئته، فقد جعلَ للإنسان كسباً واختياراً، وجعلَ طريقَ الهداية أمامَه مفتوحاً، وبصائرَ الحق على أطراف الطريق واضحةً ظاهرة ﴿ وهذا صِراطُ رَبِّك مُسْتَقيماً ﴾ لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو ظاهر لا لَبْس فيه ولا خفاء ﴿ وَقَدْ فصَّلْنا الآياتِ ﴾ الدلائلَ والبراهينَ والبصائرَ التي تبيِّن الطريق وتوضحه ﴿ لِقَومٍ يَذَّكَّرون ﴾ [١٢٦] أي: ينتفعون بالدلائل والبصائر ويتعظون.

---

(١) مجموعة التفاسير ١/٤٨١.

﴿ لهم دَارُ السَّلامِ عِنْد رَبِّهم ﴾ أي: لهؤلاء المنتفعين بالآيات الجنة السالمة عن كل الآفات والمنغصات، أو هي الدار التي يدعو إليها السلام، وهو اسم من أسمائه تعالى الذي قال ﴿ واللَّهُ يدعو إلى دارِ السَّلامِ ويهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم ﴾[1].

﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ متولي أمورهم في الدنيا والآخرة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١٢٧] من الطاعات والعبادات.

الانتقام من الظالمين بالظالمين

وأمَّا الذين أعرضوا عن دين الله وتولوا غيره من شياطين الإنس والجن، فقد بيَّن سبحانه حالهم يوم القيامة بقوله: ﴿ وَيومَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ شياطين الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويلوذون بهم ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿ يَا مَعْشَرَ الجنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم من الإنس ﴾ أي: يقالُ لهم: يا معشر الجنِّ قد أضْلَلْتُم كثيراً من الإنس.

﴿ وَقَالَ أولياؤُهم من الإنسِ ربَّنا اسْتَمْتَع بعضُنَا ببعضٍ ﴾ أي: انتفع بعضُنا ببعض، فالمنفعة بين الفريقين متبادلة، فانتفاع الإنس بالجن بأن دلُّوهم على الشهوات وأسباب التوصُّل إليها، وانتفاعُ الجنِّ بالإنس بطاعة الإنس لهم وموالاتهم واتباعهم.

﴿ وَبَلَغْنَا أجَلَنَا الَّذي أجَّلتَ لَنا ﴾ وكان هذا الاستمتاع إلى أجلٍ معيَّنٍ ووقت محدَّد، ثم انقضى ومضى وبقيت الحسرة والندامة.

﴿ قالَ النَّارُ مَثْوَاكُم ﴾ منزلُكم ومأواكم ﴿ خَالدين فيها إلا ما شاءَ الله ﴾ أي: ماكثين في النار بمشيئته سبحانه، فخلودُهم في النار ليسَ واجباً ولا لازماً، وإنما هو بمشيئته سبحانه وتقديره، وقد أخبر سبحانه في آيات كثيرة أنه شاء وقدَّر أن يمكثوا فيها أبداً، منها قوله تعالى ﴿ إنَّ الله لعنَ الكافرينَ وأعدَّ لهم سعيراً. خالدين فيها أبداً لا يجدون وَلِيّاً وَلَا نَصيراً ﴾[2].

---

(١) يونس: الآية ٢٥.

(٢) الأحزاب: الآيتان ٦٤ ـ ٦٥.

﴿ إنَّ ربك عليم حكيم ﴾ [١٢٨].

ومن حكمته سبحانه أن يسلِّط الظالمين على بعضهم، فينتقم من الظالمين بالظالمين ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بعضَ الظالمينَ بَعْضاً بِمَا كانوا يَكْسِبُونَ ﴾ [١٢٩] أي: كما جعلنا لظالمي الجن وشياطينهم تسلُّطاً على ظالمي الإنس، نسلِّط بعضَ الظالمين على بعض، ونهلكُ بعضَهم ببعض، وننتقمُ من بعضهم ببعض جزاءً على ظلمهم وبغيهم.

وقد روي عن ابن مسعود مرفوعاً «مَنْ أعان ظالماً سلَّطه الله عليه»[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: هو أنَّ الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولَّى عليهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شراً ولَّى عليهم شرارهم.

فعلى هذا القول: إنَّ الرعية متى كانوا ظالمين سلَّط الله عليهم ظالماً مثلهم، فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم[٢].

ويؤيِّده قوله تعالى ﴿ إنَّ الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِم ﴾ الآية[٣]، وما جاء في الأثر «أعمالكم عمالكم كما تكونوا يول عليكم»[٤].

الاعتراف بالجريمة

وتابعت الآياتُ الكريمة حكايةَ ما يقال للمكذِّبين بدعوة الحق من الإنس والجن يوم القيامة: ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم ﴾ أي: من جملتكم فالرسل من الإنس، وأما رسل الجن فهم الذين بلَّغوا قومَهم ما سمعوه من رسل الإنس، كما قال تعالى ﴿ وإِذْ صَرَفْنَا إليكَ نفراً من الجنِّ يستمعونَ القرآنَ

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ١/٦١٩، والحديث ذكره صاحب الفردوس بسنده ورواه ابن عساكر في تاريخه، وفيه ابن زكريا العدوي متهم بالوضع كما في كشف الخفا.

(٢) انظر تفسير الخازن ١/٤٨٤.

(٣) الرعد: الآية ١١.

(٤) رواه الطبراني من كلام الحسن البصري، والحاكم والقضاعي عن أبي بكرة مرفوعاً، وفي سنده مجاهيل كما في كشف الخفا.

فلمَّا حَضَروهُ قالوا أنْصِتُوا فَلمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهم مُنْذِرِينَ ﴾[١].

ويمكن أن يرسل الله تعالى من الجن كما أرسل من الإنس، كما رأى بعض المفسرين[٢].

﴿ يقصُّون عليكم آياتي ﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي التي أنزلتها عليهم ﴿ ويُنْذِرونكم لقاءَ يومِكم هذا ﴾ أي: ويخوِّفونكم من الحساب والجزاء في يوم القيامة.

﴿ قالوا شَهِدْنا عَلى أنْفُسِنَا ﴾ بقيام الحجَّة علينا، وبتبليغنا آيات الله تعالى، وهو اعتراف منهم بالجرم والكفر واستحقاق العذاب.

ثم بيَّنَتِ الآية الكريمة سببَ إعراضهم عن دعوةِ المرسلين عليهم السلام ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدنيا ﴾ أي خَدَعَتْهم الحياة الدنيا بزخارفها وزينتها وطول آمالهم فيها ﴿ وشهِدُوا عَلى أنْفُسِهِم أنَّهم كانوا كافرين ﴾ [١٣٠].

وقد قدَّر سبحانه أنه لن يهلكَ أمةً من الأمم مهما بلغ عنادها وكفرها، حتى يرسل إليهم رسولاً ينذرهم ويحذرهم عاقبة كفرهم وفجورهم ﴿ ذَلِكَ أنْ لم يكن ربُّك مُهلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وأهلُها غافِلون ﴾ [١٣١] أي: وهم غافلون عن عاقبة كفرهم وفجورهم، لم ينذرهم رسول ولم يحذرهم، فهو كقوله تعالى ﴿ وَمَا كنَّا مُعذِّبينَ حتى نبعثَ رسولاً ﴾[٣].

لقد أعذَرَ الله إلى الأمم بإرسال الرسل إليهم، وما ظلمهم سبحانه عندما أنزل بهم ما أنزل من العذاب والهلاك، كما أنه سبحانه لا يظلمهم أيضاً يوم القيامة، بل يعاملهم على حسب أعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أي: لكل عاملٍ من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلِّغه الله إياها، ويثيبُه بها إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشر[٤]، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا

(١) الأحقاف: الآية ٢٩.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٣٦/٧.
(٣) الإسراء: الآية ١٥.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٦٢٠/١.

يعملون ﴾ [١٣٢] فلا يخفى عليه سبحانه عمل واحد منهم.

فمن يعمل بطاعة الله تعالى فثواب عمله يعود على نفسه، والله غنيٌّ عنه، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وجميع الخلق محتاجون إليه سبحانه ﴿ وَرَبُّكَ الغَنيُّ ذو الرَّحمةِ ﴾ ومِنْ رحمته إرسالُ الرسل وإنزالُ الكتب، وعدمُ تعجيل عذاب المعاندين والمعرضين لعلهم يتوبون إلى الله ويعودون إلى ساحة فضله ومغفرته ﴿ إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ جميعاً بالإهلاك، فلا يظننَّ أحدٌ أن الإهلاك متوقِّف على شيءٍ غير مشيئته تعالى، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعدِكُم مَا يَشَاء﴾ أي: وهو سبحانه قادرٌ على أن يخلق بعد إهلاككم ما يشاء من المخلوقات من جنسكم أو من غير جنسكم ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [١٣٣] بعد أن أهلكهم، فموعدُ الهلاك قادمٌ لا شك فيه ﴿ إنَّما توعدون لآتٍ وما أَنْتُم بمعجزينَ ﴾ [١٣٤] فلا يعجز الله تعالى عنكم، ولا مفرَّ لكم من سطوته وقهره جل وعلا.

الكلمة الأخيرة

وبعد هذا التهديد والوعيد الشديد للمعاندين والمعارضين من المشركين، أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يوجه لهم كلمة أخيرة على وجه النصيحة المشوبة بالتهديد الشديد.

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ ﴾ أي: يا أقربَ الناس إليَّ، فأنتم أهلي وعشيرتي ولا آلـو في نصحكم ﴿ اعْمَلُوا على مَكَانَتِكُم ﴾ أي: على أقصى تمكنكم واستطاعتكم، أو على حالتكم التي أنتم عليها، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان(١)، والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم، وهذا على سبيل التحدي لهم ﴿ إنِّي عَامِلٌ ﴾ على مكانتي ثابت على الإسلام، لا أبالي بكل ما ألقاه منكم، فهو كقوله تعالى ﴿ وَقُل للَّذينَ لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنَّا عاملون. وانتَظِروا إنَّا منتظرونَ ﴾(٢).

---

(١) تفسير النسفي ١/٤٨٨.

(٢) هود: الآيتان ١٢١ ـ ١٢٢.

إنها العزيمة والثقة التي تملأ قلبَ النبي ﷺ، وهو في أشد حالات المواجهة مع المشركين.

﴿ فَسَوْفَ تعلمونَ مَنْ تكونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أي: أتكون لي أم لكم، وفي هذا الأسلوب اللطيف للإنذار إنصاف في المقال، وحسن الأدب، مع إظهار الثقة والعزيمة في وجه المخالفين.

ثم بيَّن أنَّ عاقبة الدَّارِ للنبيِّ ﷺ فقال ﴿ إِنَّه لا يُفلحُ الظَّالمون ﴾ [١٣٥] وقد أنجز الله موعدَه لرسوله ﷺ، فإنَّه تعالى مكَّنَه في البلاد، وحكَّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه[١].

ضلالات جاهلية

وعادت الآيات الكريمة تعرض نماذج أخرى للضلالات والمفاسد التي كانت فاشية بين العرب في الجاهلية ﴿ وَجَعلوا للَّه مِمَّا ذَرَأ ﴾ أي مِمَّا خلق ﴿ من الحَرْثِ ﴾ الزرع والثمر ﴿ وَالأَنْعامِ ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿ نَصِيباً ﴾ جزءاً وقسماً ﴿ فَقَالوا هَذَا لِلَّه بزعمِهِم ﴾ أنه للّه، والله لم يأمرهم بذلك ولم يشرع لهم تلك القسمة ﴿ وَهَذا لِشُرَكَائِنَا ﴾ وهذا القسم الآخر للأصنام والأوثان، وكانوا ينفقون ما جعلوه للّه على الضيفان والفقراء، وما جعلوه للأصنام على سدنتها والقائمين عليها.

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إلى الله ﴾ أي: ما كانوا ينفقونه في الوجوه التي ترضي الله تعالى.

﴿ وَمَا كانَ لِلَّهِ فهو يَصِلُ إِلىٰ شُرَكَائِهِم ﴾ لأنهم ينفقونه على سَدَنتِها، فقد كانوا إذا أصابتهم شدّة وقحط أو هلك ما جعلوه لشركائهم، أخذوا بدله مما جعلوه للّه تعالى.

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمون ﴾ [١٣٦]: أي بئس ما يحكمون من هذه الأحكام الفاسدة التي لا يقرُّها عقل، ولم يرد بها شرع؛ ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٢١.

يقول: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام(١).

ومن هذه الضلالات والمفاسد ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لكثيرٍ من المشركينَ قَتْلَ أولَادِهِمْ ﴾ بوأدِ البنات الصغيرات بدفنهن في التراب أحياء خشية الفقر والعار، كما قال تعالى ﴿ وإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى ظلَّ وجهُهُ مسْوَدّاً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيُمْسِكُه على هُونٍ أم يدسُّه في التراب ألا سَاءَ ما يحكمون ﴾(٢).

وأخَّرت الآية بيانَ مصدر التزيين والتحسين لجريمة قتل الأولاد لتتشوف النفوس إلى معرفته بعد أن تشمئز من قبح الجريمة وشناعتها، فقال: ﴿ شركاؤهم ﴾ والمراد بهم الشياطين الذين كانوا يوسوسون لهم زخرف القول غروراً، كما مرَّ معنا، أو سدنة الأصنام، وسُموا شركاء لأنهم كانوا يطيعونهم ويعظِّمون أمرهم، فأصبحت طاعتهم عبادة لهم من دون الله تعالى.

ولا تزال الشياطين تزيِّن لكثير من الناس في العصر الحاضر قتل أولادهم وهم أجنَّةٌ في بطون أمهاتهم، بعمليات الإجهاض ووسائل الإسقاط المختلفة.

ثم كشفت الآية الغاياتِ الخبيثةَ لتزيين مثل هذه الجرائم بقوله جل وعلا: ﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُمْ ﴾ أي: ليهلكوهم وليبعدوهم عن الدين الحق.

والله سبحانه قادرٌ على عصمتهم من هذه الجرائم والضلالات، ولكنه سبحانه جعل لهم كسباً واختياراً لها ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [١٣٧] أي: اتركهم وما يختلقون من الأكاذيب والأضاليل بعد أن تبيِّن لهم فسادها وتبلغهم رسالة الله تعالى.

ثم بيَّنت الآيات الكريمة جانباً من الضلالات والمفاسد التي كانوا يفعلونها في أموالهم من الزروع والأنعام.

---

(١) تفسير القرطبي ٧/٩٠.

(٢) النحل: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

﴿ وقالوا هذهِ أنعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ أي: قال المشركون: هذه أنعام وزروع وثمار حرام لا ينتفع بها ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا من نَشَاءُ ﴾ أي: لا يأكل منها إلا من نريد ﴿ بزعمِهِم ﴾ الباطل من غير حجةٍ ولا برهان.

﴿ وأنعامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُها ﴾ وهذه أنعام مُنِعتْ ظهورُها فلا تُركب ولا يحمل عليها.

﴿ وأنعامٌ لَا يَذْكُرونَ اسمَ اللَّهِ عليها ﴾ أي: وهذه أنعامٌ تذبح للأصنام، ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها ﴿ افتراءً عليه ﴾ على اللَّهِ سبحانه ﴿ سَيَجْزيهم بما كَانُوا يَفْتَرونَ ﴾ [١٣٨] أي: بسبب ما كانوا يكذبون على الله تعالى.

﴿ وَقَالوا مَا في بطونِ هذهِ الأَنْعامِ خَالِصَةٌ لِذُكورِنَا ﴾ أي: الأجنَّة التي في بطون هذه الأنعام الحوامل حلالٌ للذكور خاصةً دون الإناث ﴿ وَمُحـرَّمٌ على أَزْوَاجِنا ﴾ أي: وهي محرّمة على الإناث والزوجات ﴿ وَإِنْ يكن مَيْتَةً فَهُمْ فيه شُرَكاءُ ﴾ أي: وإن تكن الأجِنَّةُ ميتةً، فالذكور والإناث فيها سواء. ﴿ سَيَجْزيهِمْ وَصْفَهُم ﴾ في التحريم والتحليل والكذب عليه تعالى ﴿ إِنَّهُ حكيم عليم ﴾ [١٣٩] في كل ما يشرع، وتتنزَّه شريعتُه سبحانه عن هذه المفاسد والضلالات.

ويدل هذا التهديد المتوالي ﴿ سَيَجْزيهم بما كانوا يفْتَرون ﴾ ﴿ سَيَجْزيهم وَصْفَهُم ﴾ على خطورة التحليل والتحريم، فهو منوط بالله تعالى وحده، ولا يجوز لأحد أن يحلل شيئاً أو يحرمه من نفسه.

سَفَهٌ وجَهْل

ولقد دأبت السورة كما مرَّ معنا على الردِّ على كل المخالفين؛ ولهذا شرعت الآيات بعد أن بيَّنت بعض ضلالات العرب في الجاهلية ومفاسدهم، شرعت في ردها وبيان قبحها وفسادها بقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذين قَتلوا أولادَهم سَفَهاً بغيرِ عِلمٍ ﴾ فالأولادُ نعمةٌ من الله تعالى، وقتلُهم خسارةٌ كبيرةٌ وجريمةٌ عظيمة، لا يفعلها إلا سَفيهٌ طائش جاهل.

﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتراءً على اللَّهِ ﴾ أي: وخسر أيضاً الذين حرَّموا بعض ما رزقهم الله تعالى من الزروع والثمار والأنعام كذباً عليه سبحانه.

﴿ قد ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدين ﴾ [١٤٠]: أي جاروا عن الحق وابتعدوا عن الهدى.

ثم بيّن سبحانه أنَّه هو المالك الحقيقي للزروع والثمار والأنعام؛ لأنه هو الذي أنشأها وخلقها، فله سبحانه وحده أن يحلِّلَ ويحرِّم فقال: ﴿ وَهُوَ الذي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْروشَاتٍ ﴾ أي: مَرفوعاتٍ عن الأرض على ما يحملها، ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ أي: متروكات على وجه الأرض غير مرتفعات عنها كالعنب والبطيخ والقرع ونحوها.

﴿ والنخلَ والزَّرْعَ مختلفاً أُكُلُهُ ﴾ أي: وأنشأ النخلَ والزرعَ مختلفاً في الطعم والرائحة واللون، ﴿ والزيتونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً ﴾ في المنظر والحجم والطعم ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾.

وهذه المرة الثانية التي ذكر الله تعالى في سورة الأنعام قدرته على إنشاء الزروع والأشجار والثمار، إلا أنه في الآية الأولىٰ ذكرها الله في سياق بيان قدرته سبحانه على خلقها وإبداعها؛ لذلك جاء مع ذكرها التوجيه الكريم من الله تعالى للنظر إليها والتأمّل فيها خاصة عند نضجها لمعرفة عظمة خالقها ومبدعها ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وَيَنْعِه إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾.

أما في المرة الثانية هذه فقد ذكرت في سياق بيان ملكه تعالى لها؛ لأنَّه هو خالقُها ومبدعها، فهو سبحانه الذي يبيِّن ويشرِّع كيفية التصرف فيها؛ ولهذا قال سبحانه في ذيل الآية ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذا أثمرَ ﴾ أي: إذا ظهر الثمر ولم ينضج بعد، والأمر للإباحة، وفائدة الإباحة بيان جواز الانتفاع منه قبل أداء حق الله تعالى فيه الذي أوجبه بعد ذلك بقوله: ﴿ وَآتُوا حَقَّه يومَ حَصَادِهِ ﴾ أي: يومَ قطعهِ وقِطَافِه ﴿ ولا تُسْرِفُوا ﴾ أي: لا تتجاوزوا حدَّ الاعتدال في الأكل منه، قال عليه الصلاة والسلام: «كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة»[١].

---

(١) رواه البخاري.

﴿ إنَّه لا يحبُّ المُسْرِفينَ ﴾ [١٤١] بل يبغضهم بسبب إسرافهم، ففيه وعيد شديد للمسرفين.

الأزواج الثمانية

ثم بيَّنتِ الآيات حكمتَه سبحانه وفضلَه في خلق الأنعام وتسخيرها للإنسان وبطلان ما كان يفعله المشركون فيها ﴿ وَمِنَ الأنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ أي: وأنشأ سبحانه من الأنعام ما يحمل الأثقال، ومنها ما يفرش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره(١).

والمعنى الأول أظهر لقوله سبحانه بعد ذلك ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي: كلوا مما أحلَّ لكم منه ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطانِ ﴾ في التحليل والتحريم، والتي كان المشركون يسيرون عليها ﴿ إنَّهُ لكم عدوٌّ مبينٌ ﴾ [١٤٢] أي: عداوته ظاهرة لكم، فلا يريد بكم إلا الشر.

﴿ ثمانيةَ أزواجٍ ﴾ أي: أنشأ سبحانه من الأنعام ثمانيةَ أصنافٍ، والزوج الفردُ من الذكر أو من الأنثى؛ لأنَّ كلاًّ منهما يقارن الآخر ولا ينفك عنه.

﴿ من الضَّأْنِ اثنَيْنِ ﴾ أي: من الغنم ذوات الصوف ذكر وأنثى ﴿ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ أي: ومن الغنم ذوات الشعر ذكر وأنثى.

﴿ قُل آالذَّكَرَيْنَ حَرَّمَ أمِ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ أي: قل لهؤلاء الجهلة هل حرَّم الله عليكم الذَّكرين من الضأن والمعز أم حرَّم الأنثيين منهما؟ فهو استفهام إنكاري.

﴿ أمْ مَا اشْتَمَلَتْ عليه أرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز؟

﴿ نَبِّئُوني بعلمٍ ﴾ أي: نَبِّئُوني بأمرٍ معلوم يدل على أنَّ الله حرم شيئاً من ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ [١٤٣].

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/٤٩٦.

﴿ وَمِنَ الإبلِ اثْنَيْنِ ﴾ ذكر وأنثى ﴿ وَمِنَ البقرِ اثْنَيْنِ ﴾ ذكرٌ وأنثى، ﴿ قُلْ آالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَت عليهِ أرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ﴾.

والآية تدل على مشروعية المناظرة في العلم؛ لأنَّ الله تعالى أمرَ نبيه عليه السلام بأن يناظرهم ويبيِّنَ لهم فسادَ قولهم، فإن كان الله تعالى حرَّم الذكور، فكل ذكر حرام، وإن كان حرَّم الإناث، فكل أنثى حرام، وإنْ كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى(١).

وبعد أن بيَّن سبحانه تهافت أقوالهم وتناقضها عقلاً، بيَّن بطلانها نقلاً أيضاً فقال: ﴿ أم كُنْتُمْ شهداءَ إذ وصَّاكُمُ اللَّهُ بهذا ﴾ التحريم، وفيه تهكُّمٌ شديد بهم ﴿ فَمَنْ أظلَمُ مِمَّن افْترىٰ على اللهِ كَذِباً ﴾ فَنَسَبَ إليه سبحانه تحريم ما لم يحرِّم ﴿ لِيُضِلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلمٍ ﴾ فالمسارعةُ إلى التحريم من غير علم ضلالٌ وإضلال، فهو أمرٌ كبير وخطير لا ينبغي القول به بدون دليل قطعي يدل عليه ﴿ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القومَ الظَّالِمينَ ﴾ [١٤٤] الذين يضعون الأحكامَ الشرعيةَ في غير مواضعها الصحيحة، قال تعالى محذِّراً من هذا الأمر: ﴿ وَلَا تَقُولوا لِمَا تَصِفُ ألسنَتُكم الكذبَ هذا حلال وهذا حرامٌ لتفتروا على اللَّهِ الكذبَ إنَّ الذين يفترونَ على اللَّهِ الكذبَ لا يفلحون ﴾(٢). ولهذا نرى كثيراً من الفقهاء لا يطلقون لفظ الحرام على شيء لم يجدوا فيه نصاً قاطعاً، فإذا وجدوا نصَّاً قاطعاً بالتحريم والتحليل قالوا به، وإلا قالوا في الحل: لا بأس، وفي الحُرمة: أكره؛ خوفاً من أن يشملهم هذا الوعيد والتهديد في مثل هذه الآيات الكريمة.

شريعة الرحمة والتيسير

التحليل والتحريم لا يكون إلا عن طريق الوحي الإلّهي والشرع النبوي، ولهذا أمرَ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ أن يقول للمشركين الذين يحلّلون ويحرِّمون من عند أنفسهم:

---

(١) تفسير القرطبي ١١٥/٧.
(٢) النحل: الآية ١١٦.

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إليَّ مُحَرَّمَاً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي لا أجدُ طعاماً محرَّماً على آكلٍ يأكله ﴿ إلَّا أنْ يكونَ مَيْتَةً ﴾ وهي كل حيوان مات ولم يُذبح ذبحاً شرعياً ﴿ أَوْ دَمَاً مَسْفُوحاً ﴾ أي مصبوباً سائلاً، فخرج منه دم الكبد والطحال، وما يبقى في العروق بعد الذبح ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فإنَّه رِجْسٌ ﴾ أي إنَّ الخنزير قذر، أو إنه خبيث، أو إنه نجس، وقد أثبت العلم الحديث أنَّ لحم الخنزير يحملِ كثيراً من أسباب المرض[1]، وفي كل فترة يكتشفُ العلماء آفاتٍ كبيرة فيه[2] تؤكِّد رحمته سبحانه وحكمته في تحريم أكلِ لحم الخنزير، كما تبيِّن ضرورة كون التحليل والتحريم بيده سبحانه وحده الذي وسِع علمُه كل شيء.

وقوله سبحانه ﴿ فإنّهُ رِجْسٌ ﴾ يدلُّ على تحريم استعمال جميع أجزاء جسم الخنزير، والجدير بالذكر هنا أن الأمم التي تأكل لحم الخنزير، أدخلت دهنه وشحمه وبقية أجزاء جسمه في كثير من الأطعمة المصنّعة كالخبز والحلويات والبسكوت والمعلبات واللحوم والشوربة والسلطة والجبن وما يسمونه الجيلو، وغير ذلك من الأطعمة، فعلى المسلم أن يتنبّه لهذا ويتأكّد من محتوياتها قبل أن يتناول منها شيئاً.

﴿ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لغيرِ اللَّهِ به ﴾ وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى، وسمي ﴿ فِسْقاً ﴾ لتوغله في باب الفسق، وهو الخروج عن طاعة الله تعالى.

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي دعته الضرورة إلى أكل شيءٍ من هذه المحرّمات ﴿ غَيْرَ باغٍ ﴾ غير قاصدٍ التلذُّذ بالطعام المحرّم، فهو كقوله: ﴿ فمن اضْطُرَّ في مخمصةٍ غيرَ متجانفٍ لإثمٍ فإنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾[3].

---

(١) انظر الحلال والحرام في سورة المائدة.

(٢) من آخر ما اكتشف ما توصل إليه الدكتور بورجن هانوفر من الدانمرك بعد أبحاث عديدة على حوالي ٢٥٥٨٥ مريضاً من بلاده من اكتشاف الجرثومة المسببة لمرض كثير الانتشار في أوروبا، يبدأ بالإسهال والأنفلونزا وأعراض الزائدة الدودية وينتهي بالالتهاب المزمن في المفاصل والكلى والقلب، وقد دعته هيئة الإعجاز العلمي في القرآن إلى جدة ليتحدث عن أبحاثه العلمية. أخبار العالم الإسلامي السنة ٢٣، عدد ١٠٨٥.

(٣) المائدة: الآية ٣.

﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ ولا متجاوزٍ فيما يأكل قدر الضرورة ﴿ فإنَّ ربَّك غفورٌ رحيم ﴾ [١٤٥] فلا مؤاخذة عليه إذا تناول من الطعام المحرم ما يحفظ حياته حتى يجد الطعام الحلال، فشريعة الإسلام شريعة الرحمة والتيسير والسماحة.

ودلَّت الآية على أن التحريم لا يكون إلا بوحيٍ من الله تعالى، وأنَّ الأصل في الأشياء الحِل والإباحة حتى يقومَ دليل على تحريمها، وقد جاءت الأدلة بعد ذلك بتحريم غير هذه المحرَّمات الأربعة كالخمر، وأكل كل ذي ناب من السباع، وذي مَخْلَب من الطير، فالآية مكيّة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرَّم غير هذه الأشياء[1]. والقول بأنه لا يحرم مطعوم غير الأربعة المذكورة في هذه الآية باطل بإجماع المسلمين[2].

وما كان أهل الجاهلية يحرمونه من الأنعام والحرث لا يوجد دليل على تحريمه في شريعة الإسلام، وفي الشرائع الإلٰهية السابقة، ولهذا بيَّن الله تعالى المحرمات التي حرَّمها على اليهود بسبب بغيهم وظلمهم، وعدم انقيادهم لشريعة ربهم، فقال سبحانه: ﴿ وَعَلى الَّذين هَادُوا حرّمنا كل ذي ظُفُرٍ ﴾ أي حرَّمنا على اليهود أكل كل حيوان ذي ظفر، وهو ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط[3].

﴿ وَمِنَ البقرِ والغَنَم حَرَّمْنَا عَليهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ أي شحم الجوف والكليتين ﴿ إلا مَا حَمَلَتْ ظُهورُهما ﴾ من الشحم فإنّه غيرُ مُحرَّمٍ عليهم ﴿ أو الحَوَايا ﴾ وما اشتملت عليه الأمعاء فإنّه غيرُ محرَّم ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَط بعظمٍ ﴾ أي والشحمُ المختلِطُ بالعظم غيرُ مُحرَّم عليهم أيضاً.

وسبب هذا التحريم الذي خصَّ به اليهود بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهم بِبَغيهم ﴾ بسبب ظلمهم ﴿ وإنَّا لصَّادِقونَ ﴾ [١٤٦] في كل ما نخبر عنه.

قال تعالى: ﴿ فبِظُلْمٍ مِنَ الَّذين هَادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِم طَيِّباتٍ أُحِلَّت لَهم

---

(١) تفسير القرطبي ١٦٥/٧.

(٢) أضواء البيان ٢١٨/٢.

(٣) روح المعاني ٤٧/٨.

وَبِصَدِّهِمْ عن سبيلِ اللَّهِ كثيراً. وأخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بالباطلِ وَأَعْتَدْنَا للكَافِرينَ مِنْهُم عَذَاباً أليماً ﴾[1].

﴿ فإنْ كَذَّبُوكَ ﴾ أي: المشركون أو اليهود بما أخبرت عن بغيهم وما حرَّم الله عليهم ﴿ فَقُلْ رَبُّكم ذو رحمةٍ واسعةٍ ﴾ يمهلكم ولا يعاجلكم بالعقوبة، فلا تغتروا بتأخير عقوبة تكذيبكم، فإنها إذا نزلت فلا يردها أحد ﴿ ولا يُرَدُّ بأسُه ﴾ عذابه وانتقامه ﴿ عَنِ القَـوْمِ المُجْرِمِيـنَ ﴾ [١٤٧] المكـذِّبين لآياتـه والمعرضين عن شريعته.

الرد على المحتجين بالقدر

ولمَّا كانت آيات سورة الأنعام مهتمةً برد كل الشُبَه والضلالات التي يتعلَّق بها المخالفون في أي قضية من القضايا التي تتصدى لها، كما مر معنا، ردَّت هنا في الآية التالية شبهةً يحتج بها المشركون في قضية التحليل والتحريم: ﴿ سَيَقُولُ الَّذينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ولا آباؤُنَا ﴾ أي إنَّ الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه من الشرك حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي ما نحن عليه من الشرك وأراده منا لحال بيننا وبينه ﴿ وَلَا حرَّمنا مِنْ شَيءٍ ﴾ مما حرمناه من الأنعام والحرث كما مر معنا، ﴿ كذلكَ كَذَّبَ الذينَ مَنْ قَبْلِهِم ﴾ من الأمم السابقة، كذَّبوا أنبياءهم وقالوا مثل هذا القول: ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾.

ولا يزال كثير من الناس بعدهم حتى العصر الحاضر يحتجون بمثل ما احتج به المشركون، فتراهم يقترفون المعاصي والآثام، ثم يحتجون بالقدر، ويقولون: هكذا قدَّر الله علينا.

وهي كلمة حق وصدق، فكل شيء بإرادته سبحانه وعلمه، والتكذيب ليس في قولهم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ ما أشْرَكْنا ﴾ فاللهُ سبحانه قادرٌ على هداية جميع الناس إلى الإيمان ﴿ وَلَوْ شاء ربُّك لآمَنَ من في الأرضِ كُلُّهُم جميعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حتى يكونُوا مؤمنين ﴾[2].

---

(١) النساء: الآيتان ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) يونس: الآية ٩٩، انظر الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

إنما الكذب في قولهم: إنَّ الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه، والذي يضمونه إلى قولهم: ﴿ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا ﴾ فقد حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وَجَدْنَا عليها آباءَنا والله أَمَرَنا بها ﴾ وردَّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إنَّ الله لا يأمرُ بالفحشاءِ أتقولونَ على اللهِ ما لا تعلمون ﴾(١).

فأمرُ الله تعالى يغاير مشيئته وإرادته، فهو سبحانه مريد لجميع ما يحدث في الكون، غيرُ آمرٍ بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتَّبِعَ أمره سبحانه، وليس له أن يتعلَّق أو يحتج بمشيئته، فإنَّ مشيئتـه لا تكـون عذراً لأحد فيما يفعله بكسبه واختياره، فلا يأمر سبحانه بالكفر والفجور، ولا يرضى به، مع أنه بمشيئته وإرادته جل وعلا.

فالذين يتمسكون بمشيئته سبحانه في شركهم وفجورهم مخطئون، وتمسكهم باطلٌ وفاسدٌ، وهم مسؤولون ومحاسبون يوم القيامة عمَّا أمرهم به سبحانه بواسطة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام(٢).

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أي هل عندكم حجةٌ وبرهان على صحة دعواكم في الاحتجاج بمشيئته تعالى فتظهروه لنا وتبيِّنوه، هل أعلمكم الله تعالى بما قدَّره عليكم؟ وهل كلَّفكم إلا بما أمركم به بواسطة أنبيائه ورسله ﴿ إنْ تَتَّبِعونَ إلَّا الظنَّ ﴾ إلا الوَهَم والخيال ﴿ وإنْ أنْتُم إلا تَخْرُصُونَ ﴾ [١٤٨] وما أنتم إلا تكذبون على الله تعالى.

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ ﴾ أي: البيِّنَةُ الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة، فلا حجة لأحد عصى الله تعالى، ولكن للّه الحجة البالغة على عباده بما أرسل إليهم من رسل وأنزل عليهم من كتب؛ ولهذا فإنه سبحانه يذكر المحتجين بمشيئته بما كلفهم به بواسطة رسله فقال سبحانه: ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عَبَدْنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسلِ إلا البلاغُ المبين. ولقد بَعَثْنا في كل أمةٍ رسولاً

---

(١) الأعراف: الآية ٢٨.
(٢) انظر تفسير الخازن ٢/٥٠٤.

أن اعبدوا الله واجْتَنبوا الطاغوتَ فمنهم من هدى اللهُ ومنهم من حقَّت عليه الضلالةُ فسيروا في الأرضِ فانظرُوا كيف كان عاقبةُ المكذبين ﴾[1].

فرسالته سبحانه إلى المكلَّفين من عباده واضحةٌ لا خفاء فيها ﴿ أَنِ اعْبُدوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطاغوتَ ﴾ وقد جعل الله لهم كسباً واختياراً في ذلك؛ ولهذا فهم مسؤولون أمام الله سبحانه عما يعملون بكسبهم واختيارهم.

﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهداكُم أجْمَعينَ ﴾ [١٤٩] لكنَّه سبحانه شاء أن يكون للمكلَّفين كسب واختيار كما سبق معنا من قوله تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكم بصائرُ من ربكم فمن أبصرَ فلنفسِه ومن عميَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾.

ثم أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يزيدَ في تبكيتهم وتقريعهم بقوله لهم ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُم ﴾ أي: أحضروهم للشهادة ﴿ الذينَ يَشْهدونَ أنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذا ﴾ الذي حرَّمتم من الأنعام والحَرْثِ ﴿ فإنْ شَهدُوا فَلا تَشْهَد مَعَهُم ﴾ أي: فلا تصدقهم، فشهادتهم كاذبة باطلة ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهواءَ الذينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا والذينَ لا يؤمِنونَ بالآخرة وَهُم بربِّهم يَعْدِلونَ ﴾ [١٥٠] وهي كما مرَّ معنا في أول آيات السورة ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾.

الوصايا العشر

وجاء دورُ الوصَايا بعد كلِ هذا الحشْدِ الهائل من الأدلَّة والبراهين، والمناظرات والمجادلات، والردود والتمحيصات، فمن أجل هذه الوصايا جمع الله تعالى في سورة الأنعام كل هذه الحجج والبصائر، وهي عشر وصايا، بدأها سبحانه بقوله الكريم: ﴿ قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّم رَبُّكم عَلَيْكُمْ ﴾ أي: أَقُصُّ عليكم وأُخبِرُكم بما حرَّم ربُّكم عليكم وبما أوصاكم به.

أولها: ﴿ ألاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ والإشراك بالله رأسُ المحرَّمات وأكبرها وأقبحها، ولا يقبل الله معه شيئاً من الطاعات؛ ولذلك جعله بداية هذه الوصايا وعنوانها.

---

(١) النحل: الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

وثانيها: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ أي: أوصاكم بالإحسان إلى الوالدين، وحرَّم عليكم عقوقَهُما، وقد اقترنَ الأمرُ بالإحسان إلى الوالدين مع الأمر بعبادته تعالى وحده في عدد من الآيات الكريمة، منها: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ الآية[1]. ومنها قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ وفِصَالُه في عامين أَنِ اشْكُر لي وَلِوَالِدَيكَ إليَّ المصير ﴾[2].

وثالثها: ﴿ وَلَا تَقْتُلوا أولادَكُم من إِمْلاقٍ ﴾ أي: من أجل فقر، أو من خشيته، وكان بعض العرب في الجاهلية ـ كما مرَّ معنا ـ يقتلون أولادهم بسبب تزيين الشياطين ووساوسهم، وقد حذَّر الله تعالى منه في عددٍ من الآيات الكريمة، منها قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نحنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كبيراً ﴾[3].

وقال سبحانه هنا: ﴿ نَحنُ نرزُقكم وإيَّاهم ﴾ فقد تكفَّل سبحانه برزق الآباء والأبناء.

ورابعها: ﴿ وَلَا تَقْرَبوا الفواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ ﴾ أي: ما كان ظاهراً منها وما كان خفياً فهو كما سبق معنا من قوله تعالى ﴿ وَذَرُوا ظاهِرَ الإثم وباطِنَهُ ﴾.

وخامسها: ﴿ وَلَا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بالحقِّ ﴾ أي: لا تقتلوا النفسَ البشريةَ التي حرَّم الله قتلَها، إلا بسببٍ مشروع يستوجب ذلك، قال ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة»[4].

فالاعتداء على حياةِ الإنسان بغير حق ذنبٌ كبير، وجرم عظيم، وقد شَرَعَ اللَّهُ تعالى القصاص حقناً لدماء الناس، وحفظاً لحياتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ في

---

(١) الإسراء: الآية ٢٣.
(٢) لقمان: الآية ١٤.
(٣) الإسراء: الآية ٣١.
(٤) رواه مسلم.

القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولِي الألْبَابِ لَعَلَّكم تَتَّقُونَ ﴾[١].

وتوعَّد سبحانه قاتلَ النفسِ بدون حق بأشد أنواعِ العذاب يوم القيامة ﴿ وَمَنْ يَقْتل مؤمِناً متعمِّداً فجزاؤه جَهَنَّمُ خَالِداً فيها وغَضِبَ اللَّهُ عليه ولَعَنَهُ وأعدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً ﴾[٢].

ثمَّ ختَمَ اللَّهُ تعالى هذه المجموعةَ من الوصايا بقوله: ﴿ ذَلِكُم وَصَّاكم به لَعلَّكم تعقُلونَ ﴾ [١٥١] أي: وصَّاكم بهذه الوصايا الكريمة لعلكم ترشدون، فإنَّ كمال العقل هو الرشد، ففي هذه الآية أسباب الكمال الإنساني، وأهمها توحيد الله تعالى، وإفراده وحده بالعبادة والطاعة، ثم برُّ الوالدين والإحسان إليهما، وتطهير النفس والسلوك من دنس المعاصي الظاهرة والباطنة، واحترام حقوق الآخرين والمحافظة عليها، ومن أهمها حق الحياة.

وبهذه الخصال الرفيعةِ يتميَّزُ الإنسانُ عن الحيوانِ ويسمو في معارجِ الكمال، ويكون حقاً منتفعاً بعقله متفهِّماً لحقيقةِ حياتِه وجوهرِ وجودِه.

سادسها: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مالَ اليتيم إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ ﴾ أي: لا تعتدوا على حقوق الأيتام، ولا تقتربوا من أموالهم إلا بقصد حفظها لهم، فقد اهتم الإسلام بالضعفاء في المجتمع وأمر بالمحافظة على حقوقهم، قال ﷺ يحث على رعاية الأيتام وتربيتهم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما[٣].

وتوعَّد الله تعالى آكلي أموال اليتامى بأشدِّ أنواعِ الوعيد فقال: ﴿ إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظُلماً إنَّما يَأْكُلون في بطونهم ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾[٤].

وينبغي أن تستمرَّ رعايةُ اليتيم وحفظُه ﴿ حَتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي حتى يصير بالغاً راشداً قادراً على التصرف في ماله والمحافظة عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا

---

(١) البقرة: الآية ١٧٩.

(٢) النساء: الآية ٩٣.

(٣) رواه البخاري.

(٤) النساء: الآية ١٠.

اليَتَامَى حَتى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُم منهم رُشْداً فادْفَعُوا إليهم أموالَهُم وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرافاً وَبِدَاراً أن يكبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُل بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمُ إِلَيْهِم أموالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِم وَكَفَى باللَّهِ حَسِيباً ﴾[١].

وسابعها: ﴿ وَأَوْفُوا الكَيْلَ والميزانَ بالقِسْطِ ﴾ أي بالعدل، وهو مبدأ الإنصاف في المعاملات والاحتراز والتوقي عن الشبهات، ولما كان الالتزام بهذا المبدأ وتطبيقه في مختلف مجالات التعامل مع الناس أمراً عسيراً، قال سبحانه بعده ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَها ﴾ أي: إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، فما وراء الوسع معفوٌّ عنه.

وثامنها: ﴿ وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبىٰ ﴾ أي: إذا تكلمتم بأداء شهادة أو تحكيم فاعدلوا، ولو كان الذي تشهدون عليه من أقاربكم، فلا ينبغي لعلاقات القرابة أن تؤثِّر على التزام الحق والعدل، كما قال تعالى: ﴿ يا أَيُّها الذين آمَنوا كونُوا قوَّامينَ بالقِسْطِ شهداءَ للَّهِ وَلَوْ على أنفسِكُمْ أو الوَالِدَيْن وَالأَقْرَبينَ إنْ يكُن غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فاللَّهُ أولى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْووا أَوْ تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تَعْمَلونَ خَبيراً ﴾[٢].

وتاسعها: ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ أي: عهد الفطرة وعهد الإيمان وما عاهدتـم الله عليه في النذور والأيْمان، والعهود التي بينكم وبين الناس، وأضيفت إلى الله تعالى لأنه أمر بحفظها والوفـاء بها، فقـال: ﴿ وأوفوا بـالعهدِ إنَّ العهـد كان مسؤولاً ﴾[٣].

وختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿ ولكم وصّاكم به لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [١٥٢] لما في هذه المجموعة من الوصايا من التزامات يحتاج الإنسان دائماً أن يُذكَّر بها ليؤديها على الوجه الكامل.

الصـراط المستقيم

ختم الله تعالى هذه الوصايا بوصيةٍ عاشرة، جمع فيها كلَ ما تقدم من الوصايا

---

(١) النساء: الآية ٦.

(٢) النساء: الآية ١٣٥.

(٣) الإسراء: الآية ٣٤.

السابقة، آمراً بالتزامها والاستقامة عليها، محذِّراً من أيِّ انحرافٍ عنها، فقال عز وجل: ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطي مُستقيماً فاتَّبِعُوهُ ﴾ فهو المنهج القويم والدين المستقيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده المؤمنين، فاتَّبِعوهُ جملةً وتفصيلاً.

وسبق أن مرَّ معنا قوله تعالى ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُستَقِيماً قد فصَّلْنَا الآياتِ لِقَومٍ يذَّكَّرون ﴾ فكأنَّ هذه الوصايا العشر جَمَعَ اللهُ تعالى فيها كل التوجيهات والإرشادات التي ذكرت في آيات السورة.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ أي: لا تَتَّبِعوا الشَرَائِعَ والعقائدَ والمللَ والنِّحلَ المخالفة لدين الإسلام ﴿ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيلِهِ ﴾ أي: تميل بكم عن الصراط المستقيم كما قال تعالى ﴿ فَمَاذَا بعدَ الحقِ إلا الضَّلال ﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله(١).

وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً» وخطَّ عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السُّبلُ ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾»(٢).

فللحقِّ طريقٌ واحد، وللباطلِ طرقٌ كثيرة متفرِّقةٌ متشعِّبةٌ لكثرةِ الأهواء واختلافها، ولهذا وحَّد الله تعالى النور، وجمع الظلمات في أول آيات السورة ﴿ وَجَعَلَ الظلماتِ والنور ﴾.

وكان بعض السلف يرى أن هذه الآيات الثلاث رسالة من النبي ﷺ إلى كل إنسان، مختومة بخاتمه عليه الصلاة والسلام، قال ربيع بن خيثم لجليس له:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٣٣.

(٢) رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه.

أَيَسُرُّكَ أن تؤتى بصحيفة من النبي ﷺ ولم يُفكَّ خاتمها؟ قال: نعم، قال: فاقرأ ﴿ قُلْ تعالَوا أَتْلُ ما حرَّم رَبُّكم عليكم ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث.

وقد أجمعت كل الشرائع الإِلٓهية المنزلة عليها، ولم تنسخ قط في مِلَّة، وقد قيل إنها العشر كلمات المنزلة على موسى، ونقل عن كعب الأحبار أنها مفتتح التوراة[1].

﴿ ذَلِكُم وَصَّاكم به لَعَلَّكم تَتَّقونَ ﴾ [١٥٣] أي: تَتَّقونَ الله تَعالى بالتزام الصراط المستقيم، والابتعاد عن السبل والملل والنحل المخالفة له.

ومما يؤكِّد أهمية هذه الوصايا العشر وإجماع الشرائع الإِلٓهية عليها قوله تعالى بعد ذلك ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا موسىٰ الكِتابَ تماماً على الَّذي أَحْسَنَ ﴾ أي: وآتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسنه الله عز وجل إلى موسى عليه السلام، فإنزال التوراة عليه من تمام نعمته جل وعلا وإحسانه على نبيه موسى عليه السلام[2]، ﴿ وَتَفْصيلاً لكلِّ شيءٍ ﴾ أي: وفي التوراة تفصيلُ كل شيء يحتاجون إليه في شريعتهم، وفيها أيضاً ﴿ وَهُدىً ورحمةً لعَلَّهُم بلقاءِ رَبِّهم يؤمِنون ﴾ [١٥٤] أي: لعل بني إسرائيل يصدقون بلقاء الله تعالى يوم القيامة.

وانتقلت الآياتُ من الحديث عن التوراة وعما فيها ومسؤولية بني إسرائيل عنها إلى الحديث عن القرآن الكريم: ﴿ وَهَذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ فالقرآن الكريم خيره كثير لا ينتهي، ونفعه كبير لا ينقطع، وقد سبق وصفه بهذه الصفة في قوله تعالى ـ الذي مرَّ معنا ـ ﴿ وَهَذا كتابٌ أنزلناهُ مُبارَكٌ مُصدِّقُ الذي بين يديه ولتُنذِرَ أمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَها ﴾.

ثم أمر سبحانه باتباع أحكامه، وحذَّر من مخالفتها والخروج عنها فقال: ﴿ فاتَّبِعوهُ واتَّقُوا لعلَّكم تُرْحَمون ﴾ [١٥٥] أي: لعلكم بهذا الاتباع والالتزام تنالون رحمة الله في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرطبي ١٣١/٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٤٣/٧.

القرآن الكريم والعرب

ولما انتقلت الآياتُ الكريمةُ للحديث عن القرآن الكريم انتقلت أيضاً إلى مخاطبة قوم النبي ﷺ، وهم العرب، لتبيِّنَ لهم مسؤوليتَهم الكبيرةَ على وجه الخصوص في حمل رسالة القرآن الكريم إلى جميع الناس، إذ قامت حجة الله عليهم أكثر من غيرهم من الأمم؛ لأنَّ القرآن الكريم نزل على رجل منهم، ونزل بلغتهم وفي أرضهم، فلا عذر لهم ﴿ أَنْ تَقُولوا إنَّما أُنْزِل الكتابُ علىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبلِنَا ﴾ أي: أنزلنا القرآن الكريم لينقطع عذركم، فلا تقولوا أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ولم ينزَّل علينا شيء ﴿ وإنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِم لَغَافِلينَ ﴾ [١٥٦] أي: وما كنَّا نفهم ما يقولون؛ لأنَّهم ليسوا بلساننا، ونحن في غفلة وشغلٍ مع ذلك عما هم فيه(١).

﴿ أو تقُولوا لَوْ أَنَّا أُنْزِل علينا الكتابُ لَكُنَّا أهدى منهُم ﴾ أي: أكثر هدايةً إلى الحق ومعرفته منهم، لحدة أذهاننا وغزارة حفظنا.

﴿ فَقَدْ جاءَكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكم ﴾ أي: فقد جاءكم في القرآن الكريم حجةٌ واضحة تعرفونها لظهورها ولكونها بلسانكم ﴿ وَهُدىً ورحمةٌ ﴾ وفيه أيضاً هدىً ورحمة كما في التوراة.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللّهِ ﴾ أي: فلا أظلم مِمَّن كذَّب بآيات الله بعد أن عَرَفَ صحتها أو تمكَّن من معرفتها ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ وأعرض عنها أو صرف النَّاسَ عنها، فجمع بين الضلال والإضلال(٢).

﴿ سَنَجْزي الَّذينَ يَصْدِفونَ عَنْ آياتِنَا سُوءَ العذاب ﴾ أي العذاب السيىء الشديد ﴿ بما كانوا يَصْدِفون ﴾ [١٥٧] أي: بسبب صَدِّهِم وإعراضِهم عن القرآنِ الكريم وبصائِره وبراهينه.

فالعربُ مسؤولون عن رسالة القرآن الكريم أكثر من غيرهم؛ لأنَّ حجة الله

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٦٣٥/١.

(٢) انظر: روح المعاني ٦٢/٨.

تعالى قامت عليهم قبل غيرهم وأكثر من غيرهم، فقد بلَّغهم النبيُّ ﷺ رسالةَ الإسلام قبل أن يبلِّغ غيرهم، وقد مرَّ معنا قوله تعالى: ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَها ﴾ فبدأ ﷺ بأمِّ القرى مكة المكرمة، ثم ثنَّى بما حولها من بقاع الأرض، وظلَّ مشغولاً بتبليغهم معظم سنوات حياته في الدعوة حتى السنة السادسة من الهجرة، فبعد أن وقَّع عليه الصلاة والسلام صلحَ الحديبية مع قريش، ووضعت الحربُ أوزارَها، شَرَع عليه الصلاة والسلام في تبليغِ الأمم والشعوب الأخرى خارج أرض العرب، وأرسل الرسائل والكتب إلى الملوك والأمراء، يدعوهم إلى الإسلام، ويبلِّغُهم دعوةَ القرآن.

ويؤكِّد مسؤولية العرب الخاصة عن حمل رسالة القرآن الكريم إلى النَّاس كافَّةً أن الله تعالى خصَّص في القرآن الكريم آياتٍ كثيرة تبيِّن ما كان فاشياً في المجتمع العربي الجاهلي من ضلالاتٍ ومفاسد، وقد مرَّ معنا كثير منها في سورة الأنعام، كما مر معنا أن النبي ﷺ أُمر أن يناديَهم بـ (يا قوم) تذكيراً لهم بروابط القرابة والجنس واللغة والأرض التي تربطه عليه الصلاة والسلام بهم، وما ناداهم عليه الصلاة والسلام بذلك إلا ليذكرَهم بمسؤوليتهم الكبيرة الخاصة أمام الله تعالى عن حمل القرآن الكريم وتبليغه للناس، فدعوة الإسلام منزَّهةٌ عن كل هذه الروابط، وهي أسمى منها، فهي رسالة شاملة عامَّةٌ للإنس والجن، وقد قال تعالى يقرر هذه المسؤولية ويؤكدها ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لك ولقومك وَسَوْفَ تُسْأَلونَ ﴾[1].

أشـراط الساعـة

فماذا ينتظر المعاندون والمعرضون من قوم النبي ﷺ بعد كل هذه الحجج والبصائر، لَمْ يَبْقَ إلا أن يكشف لهم عن المصير الأليم الذي ينتظرهم إنْ أَصَرُّوا على عنادهم واستكبارهم ﴿ هَلْ يَنْظُرونَ إلاَّ أَن تأْتِيَهُم الملائِكَةُ ﴾ لتقبضَ أرواحَهُم عندما تحين آجالهم، وقد مرَّ معنا وصفٌ للملائكة وهي تقبض أرواحهم في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ ترى إذ الظالمونَ في غَمَرَاتِ الموت والملائكةُ باسطو أيديهم أَخْرِجوا

(١) الزخرف: الآية ٤٤.

أَنْفُسَكُم اليومَ تُجْزَونَ عَذابَ الهُون بما كنتم تقولون على اللهِ غيرَ الحق وكنتُم عن آياته تستكبرون ﴾.

﴿ أَوْ يأتيَ رَبُّك ﴾ يوم القيامة ليسألهم ويحاسبهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بعضُ آياتِ ربِّكَ ﴾ من أمارات الساعة وأشراطها، فقد جعل سبحانه ليوم القيامة علاماتٍ وأشراطاً تتقدَّم عليها، وهي أحداث كبيرة وعظيمة خارقة لعادات الناس ونواميس الكون في الحياة الدنيا؛ لأنها تأتي مقدِّمة لأعظم الأحداث الكونية وأشدِّها هولاً، ألا وهو قيام الساعة، فعندما تقوم الساعة تتغيَّرُ النُّظُمُ والنَّواميسُ الكونية كلها الأرضية والسماوية، فالسماوات تتشقَّق وتُطوى، والنُّجومُ تنكدر وتزول عن مواقعها، والأرضُ تتغَيَّر معالمُها، فَتُنْسَفُ جبالها وتمتلىء وديانها ووهادها، والشمس تكوّر أشعتها ويزول ضَوْؤها، ومبدأ هذا التغيير الكلي لجميع النظم الكونية يكون عند حدوث علامات الساعة الكبرى، إنَّ هذه العلامات تغيير جزئي في النظم والنواميس الكونية، يؤذن بقرب حدوث التغيير الكلي، وقد أشار الله تعالى إلى أشراط الساعة هذه في عِدَّة آيات، هنا في هذه الآية، وفي قوله أيضاً ﴿ فَهَل يَنْظُرون إلا الساعةَ أن تأتيَهم بغتةً فقد جاءَ أشراطُها فأنَّى لهم إذا جَاءَتْهُم ذِكراهم ﴾[1].

﴿ يَومَ يأتي بعضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفساً إيمانُها لم تكن آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ في إيمانها خَيراً ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ من أمارات الساعة وأشراطها حين تطلع الشمس من مغربها، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» ثم قرأ هذه الآية.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ الله عز وجل يبسطُ يدَه بالليل ليتوبَ مسيىءُ النهار، ويبسطُ يدَه بالنهار ليتوبَ مسيىءُ الليل حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها».

---

(١) محمد: الآية ١٨.

﴿ قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [١٥٨] وهو تهديد شديد للكافرين، ووعيدٌ أكيد لمن سوَّفَ إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك[١].

الديـن الحـق

وعندما أشْرَفَتْ سورة الأنعام على الانتهاء الْتَفَتَتْ إلى النبي ﷺ تواسيه، وتخفِّف من معاناته، وتعلن براءَته عليه الصلاة والسلام من جميع المخالفين لدعوته: ﴿ إِنَّ الَّذين فرَّقوا دِينَهم ﴾ باتِّباعِهم للسبل المخالفة، وإعراضهم عن الصراط المستقيم.

وَقُرِىءَ ﴿ فَارقوا دينهم ﴾.

وأضيف الدين إليهم مع أنهم فارقوه وكفروا به؛ لأنَّ الإسلام هو الدين الوحيد الحق الذي رضيه الله تعالى للناس جميعاً، ففطرهم عليه ودعاهم إليه ﴿ فأقِمْ وَجْهَكَ للدِّين حَنيفاً فطرةَ اللَّهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللَّهِ ذلكَ الدينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يعلمون ﴾[٢].

﴿ وَكانُوا شِيَعَاً ﴾ أي: وأصبحوا نتيجة مفارقتهم للدين الحق فِرَقاً متعددة، وأحزاباً كثيرة مختلفة، كما مر معنا في قوله تعالى ﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوهُ ولا تتَّبِعوا السُّبُلَ فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾، فكثرةُ السُّبلِ تؤدي إلى كثرة الفِرَق والأحزاب والملل والنحل الضالَّة المضلة.

ولا شك أنَّ الآية تنسحب أيضاً على أهل الضلالة من الأمة المسلمة من أصحاب البدع والشبهات، قال ابن كثير رحمه الله: والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإنَّ الله بعث رسولَه بالهدى ودينِ الحق ليظهره على الدين كله، وشرعُه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿ وكانوا شِيَعَاً ﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنِّحل والأهواء والضلالات، فإنَّ الله تعالى قد بَرَّأ رسول الله ﷺ مما هم فيه[٣].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٣٧.

(٢) الروم: الآية ٣٠.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٦٣٨.

﴿ لَسْتَ مِنْهُم في شيءٍ ﴾ أي: أنت بريء منهم ﴿ إنَّما أمرُهم إلى الله ﴾ في الحساب والجزاء ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كانوا يَفْعَلونَ ﴾ [١٥٩] أي: يحاسبهم يوم القيامة عما كانوا يفعلون في الدنيا.

ثمَّ بيَّنت الآياتُ فضلَ الله تعالى وعدلَه في الحساب يوم القيامة ﴿ مَنْ جَاءَ بالحسنةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالِها ﴾ وهذا من فضله سبحانه، فهو كقوله ﴿ مَنْ جاء بالحسنةِ فلَهُ خيرٌ منها وهُمْ مِنْ فَزَعٍ يومَئِذٍ آمِنُون ﴾(١).

﴿ وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا ﴾ وهذا من عدله جل وعلا ﴿ وَهُمْ لا يُظلمون ﴾ [١٦٠] بنقصٍ في الثواب أو زيادةٍ في العقاب، فهو كقوله تعالى ﴿ وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئةِ فَكُبَّتْ وجوهُهم في النَّار هل تُجْزَوْنَ إلا ما كنتم تعملون ﴾(٢).

إعـلان الدعـوة

وكما أعلن إبراهيمُ عليه السلام براءَته من قومه ومن كفرهم وشركهم بعد أن ناظرهم وأقام الحجة عليهم ـ كما مرَّ معنا ـ أُمِرَ نَبِيُّنا ﷺ بعد أن واجه قومه والمعارضين لدعوته بكل ما تقدَّم في السورة من الحجج البالغة والبراهين القاطعة، أن يعلنها دعوةً ربَّانية خالصةً عن شوائب الكفر والشرك، ويعلن انقياده لها واستسلامه الكامل للّه تعالى، المتَّصفِ بكل صفات الجمال والجلال والكمال؛ ليكون ﷺ القدوةَ المثلى، والأسوة العظمى ﴿ قُلْ إنَّني هداني ربِّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ ديناً قِيماً ﴾ أي: دلَّني ربِّي إلى الصراطِ المستقيم، وأمرني باتباعه والتزامه، فهو الدينُ الحق الذي تمتد جذوره في أعماق التاريخ البشري إلى عقيدة التوحيد التي نادى بها إبراهيم عليه السلام ﴿ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وَمَا كانَ مِنَ المُشْرِكينَ ﴾ [١٦١].

وتستدعي هذه العقيدة توحيدَ العبادة والسلوك، وتوجيهَ الحياة كلها بما فيها حسب منهج الله تعالى ودينه وشريعته ﴿ قُلْ إنَّ صَلاَتي وَنُسُكي ﴾ أي: وذبحي

(١) النمل: الآية ٨٩.
(٢) النمل: الآية ٩٠.

﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ فما أحيا عليه من الإيمان والإسلام أموت عليه وأبقى متمسكاً به حتى الموت ﴿ لِلَّهِ ربِّ العَالَمِينَ ﴾ [١٦٢] خالصاً للّه تعالى وحده ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ أي: بهذا الإخلاص والتوحيد أمرت ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ المسلمينَ ﴾ [١٦٣] وهو كما مرَّ معنا في قوله تعالى ﴿ قُلْ إنّي أُمرت أنْ أكونَ أول مَنْ أسلَمَ ﴾.

ولم تترك السورة حتى في هذا الإعلان أسلوبَ الجدال وإقامة الحجة على المخالفين، وهو ظاهر في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَغيْرَ اللَّهِ أبغي رَبًّا ﴾ أي: أطلب رباً ﴿ وَهُوَ ربُّ كُلِّ شَيءٍ ﴾ فكل ما سواه سبحانه مربوب لا يصلح للربوبية. ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عَلَيْهَا ﴾ فكل مكلَّف له كسبٌ واختيار، وإلى نفسه يعود نتيجة كسبه واختياره ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ فالمسؤولية شخصية فلا يحاسَبُ أحدٌ عن أحد، ولا يتحمَّل أَحدٌ ذنبَ أحدٍ ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّكُم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [١٦٤] بسبب انحرافكم عن المنهج القويم والصراط المستقيم.

الخاتمة

ثم ختمَ اللهُ تعالى هذه السورة الكريمة ببيان الحكمةِ من خلق السموات والأرض، وجعلِ الظلمات والنور، وبيانِ السبب الذي جعل الكفارَ يَعْدِلون بالله تعالى غيره من المخلوقات، وبهذا يظهر الارتباط الوثيق بين أول آيات السورة وآخرها، ففي أولها قال سبحانه: ﴿ الحمدُ للَّهِ الَّذي خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وجَعَلَ الظُّلمَاتِ والنُّورَ ثمَّ الَّذينَ كَفرُوا بِـرَبِّهم يَعْدِلـون ﴾ فاللهُ سبحانه خلق السموات والأرض وجعل فيهما الظلمات والنور الحسيَّة والمعنوية، وخلق الإنسان وسخَّر له ما في السموات والأرض، وأقامَ له الحججَ والبراهينَ، وأنزلَ عليه الآيات والبيِّنات، وقرَّب له البصائر، وجعل له وسائلَ التمكين والتمييز ليصبح أهلاً للمسؤولية؛ ابتلاءً واختباراً، لِيَهْلِك مَنْ هلك عن بيِّنةٍ وبصيرةٍ، ويحيى من حيَّ عن بيِّنةٍ وبصيرة.

بيَّن سبحانه كل ذلك ووضَّحه في آيةِ الختام ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُم خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ يخلِفُ بعضكم بعضاً في الأرض ﴿ وَرَفَع بعضَكم فوقَ بعضٍ درجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فيما آتاكُمْ إنَّ ربَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وإنَّهُ لَغَفُورٌ رحيم ﴾ [١٦٥].

أسأله سبحانه أن ينوِّر قلوبَنا ببصائرِ الحق
ويثبِّتنا على صراطِهِ المستقيم، والحمدُ للّهِ رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه والتابعين.

المراجـع

- كتب السنة المعتمدة.
- تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن (القرطبي) ط ٢، تحقيق: أبي إسحاق أطفيش.
- مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني.
- نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبقاعي ط ١، الهند.
- روح المعاني للألوسي البغدادي، دار الفكر.
- تفسير البيضاوي، مجموعة التفاسير، إحياء التراث.
- تفسير النسفي، مجموعة التفاسير، إحياء التراث.
- تفسير الخازن، مجموعة التفاسير، إحياء التراث.
- أضواء البيان، للشنقيطي، المطابع الأهلية، الرياض.
- فتح القدير، للشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق.
- الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس، للمؤلف.
- الحلال والحرام في سورة المائدة، للمؤلف.
- التوحيد والتنزيه في سورة مريم، للمؤلف.
- المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء، للمؤلف.
- القرار المكين للطبيب مأمون شقفة، ط ١.
- مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
موضوع سورة الأنعام ٩
الفصل الأول: الحمد لله ١١
الحمد لله ١٣
الظلمات والنور ١٦
بين أجلين ١٧
خالق كل شيء ١٩
سنّة الله في المكذبين ٢٠
الباحثون عن حتفهم ٢١
الرحمة أولاً ٢٢
الحياة والمسؤولية ٢٣
كمال العبودية ٢٥
المسلم الأول ٢٦
مالك النفع والضر ٢٧
أعظم شاهد وأكبر شهادة ٢٩
الكاذبون والمكذبون ٣٠
أين شركاؤكم؟ ٣٠
المهلكون لأنفسهم ٣١
وقفة على النار ٣٢
وقفة بين يدي الله تعالى ٣٣
حاملوا الأوزار ٣٥
الحياة الدنيا والآخرة ٣٦
حقيقتان هامتان ٣٧
النصر القريب ٣٨
لسنا وحدنا في الكون ٤٠
في الظلمات ٤٢
الإنسان والدعاء ٤٣
قسوة القلب ٤٤
الاستدراج ٤٥
ما أضعف الإنسان ٤٧
لا يستوي الأعمى والبصير ٤٩
الفصل الثاني: توجيه وإرشاد . . ٥١
تمهيد ٥٣
كرامة المؤمنين ٥٣
التفضيل بالإيمان والتقوى ٥٥
رحمته سبحانه بالمؤمنين ٥٦
عزة الإيمان ٥٧
آية وحديث ٥٨

مفاتح الغيب ٦٠
النوم والموت ٦٢
الطريق المرسوم ٦٤
ظلمات البر والبحر ٦٥
التحذير من الفرقة والاختلاف .. ٦٦
الابتعاد عن مجالس الكفر والفجور ٦٩
الاستمرار في التبليغ ٧٠
حيرة وقلق ٧٢
العلاج ٧٣

الفصل الثالث: مناظرة وردود .. ٧٥

إبراهيم عليه السلام ٧٧
ملكوت السموٰات والأرض ٧٨
المناظرة ٧٩
براءة وتفويض ٨٢
أمن وخوف ٨٤
شجرة النبوة ٨٥
التوكيل بالرسالة ٨٦
الرد على منكري النبوة ٨٨
أم القرى ٩٠
الرد على مدَّعي النبوة ٩٢
الرد على الطبيعيين ٩٤
المستقر والمستودع ٩٦
الحَبُّ المتراكب ٩٧
الرد على القائلين بصفة الولادة
والولد للّه تعالى ٩٩
الإدراك والرؤية ١٠٠
جاءت البصائر ١٠٢
من أدب المناظرة ١٠٤
الإعلام المزخرف ١٠٦
تحكيم القرآن الكريم ١٠٧

الفصل الرابع: سفه وضلال ... ١١١

تمهيد ١١٣
التحليل والتحريم للّه تعالى ... ١١٣
التسمية عند الذبح ١١٥
الإيمان حياة والكفر موت ١١٦
أكابر المجرمين ١١٧
من حقائق القرآن العلمية ١١٩
الانتقام من الظالمين بالظالمين . ١٢١
الاعتراف بالجريمة ١٢٢
الكلمة الأخيرة ١٢٤
ضلالات جاهلية ١٢٥
سفه وجهل ١٢٧
الأزواج الثمانية ١٢٩
شريعة الرحمة والتيسير ١٣٠
الرد على المحتجين بالقدر ١٣٣
الوصايا العشر ١٣٥
الصراط المستقيم ١٣٨
القرآن الكريم والعرب ١٤١
أشراط الساعة ١٤٢
الدين الحق ١٤٤
إعلان الدعوة ١٤٥

الخاتمة ١٤٦

المراجع ١٤٩